عصمة الأنبياء

وهو الكتاب المسمى

(تحفة الأصفياء في بيان معنى القول بعصمة الأنبياء)

تأليف

فتح الله بن أبي بكر البناني

صححه

محمود مرسي عبد الحميد

الطبعة الأولى

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فتح الله ابي بكر البناني
عصمة الانبياء ، تأليف : فتح الله ابي بكر البناني ، وتحقيق محمود مرسي عبدالحميد .- ط١.- القاهرة : المكتبة الأزهرية للتراث ، الجزيرة للنشر والتوزيع ، ٢٠١١
ص ؛ سم
تدمك : ١-٢٨١-٣١٥-٩٧٧-٩٧٨
١ - التصوف والاخلاق
أ – الشاغول ، محمد عبدالرحمن (محقق)
ب - العنوان

المكتبة الأزهرية للتراث
للنشر و التوزيع

العنوان .
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة
هاتف : ٢٥١٢٠٨٤٧
فاكس : ٢٥١٢٨٤٥٩
ص .ب : ٣٤ الأزهر
الرمز البريدي : ١١٦٧٥

الطبعة الأولى
١٤٣٢ـ٢٠١٢

رقم الإيداع : ٥٥٥٥ / ٢٠١٢
الترقيم الدولي : ١-٢٨١-٣١٥-٩٧٧-٩٧٨

البريد الالكتروني elazharia lel torath @hotmail .com.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي مَنْ توكل عليه كفاه ، ومن اعتصم به حفظه ومن كل مكروه حماه ، والصلاة والسلام على الركن الأعظم والكنز المطلسم ، أفضل من تأخر أو تقدم سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله ، ذي المقام الأعلى والقدر الرفيع عند الله القائل : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » وعلى آله وأصحابه الذين من توسل بهم إلى الله أذهب الله عنه الهم والجوى ، أما بعد . .

فيقول أفقر العبيد وأحوجهم إلى رحمة الله (فتح الله) بن أبي بكر بن محمد بناني تولاه الله : لما منَّ الله (تبارك وتعالى) علينا – فضلاً منه وكرمًا – بسرد الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي أبي الفضل عياض رحمه الله في زاويتنا مع بعض الإخوان ، أصلح الله لي ولهم الشان ، وقوانا وإياهم في ذات الله إنه الكريم المنان ، ووصلنا إلى الفصل الثاني في عصمة الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) من القسم الثالث منها فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه ﷺ (أمعنت) النظر في كلام العلماء رضي الله عنهم في معنى العصمة فوجدته بحرًا لا ساحل له ، وكل واحد عبَّر بحسب فهمه وطوقه وما تيسر له ، إلا أن ما ذكروه رضي الله عنهم مفترق في مواضع شتى ، ولا يخفاك أن الافتراق لا يحصل معه كمال الفائدة عند أهل الأذواق ، فاستخرت الله (تبارك وتعالى) في جمع ما وقفت عليه عن العلماء الأعيان في هذه الرسالة من غير زيادة ولا نقصان إلا ما لابد منه عند إرادة البيان ، حملني على ما أردت

خوف الضياع مع أنني أعترف بأني لست من فرسان هذا الميدان ؛ لقلة العلم وقصر الباع والتشبه بالسادات الكرام رجاء أن يدخلني الله في زمرتهم بمحض فضله وكرمه سبحانه ؛ لقول مولانا رسول الله ﷺ : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » قال العلقمي رضي الله عنه : أي من تشبه بالصالحين يكرم كما يكرمون ، ومن تشبه بالفسّاق لم يكرم ومن وضع عليه علامة الشرفاء أكرم وإن لم يتحقق شرفه انتهى .

ولقول سيدي عمر السهروردي رضي الله عنه وأجاد :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إنَّ التشبه بالكرام رباح

وقول مولانا رسول الله ﷺ : « **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له** » أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد نصَّ العلماء رضي الله عنهم على الانتفاع بالتأليف يدخل في عموم قوله ﷺ : « **أو علم ينتفع به** » بل قالوا : إن التأليف أولى في نفع العباد لأنه مظنة عدم انقطاع الانتفاع به ولا يعترض على ما عزم عليه العبد الضعيف بقول الشيخ أبي عبد الله سيدي محمد ابن عرفة إنما تدخل التآليف في ذلك إذا اشتملت على فائدة زائدة وإلا فذاك تخسير للكاغط ويعنى بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليه ، وأما إذا لم يشتمل التأليف الأعلى نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه : إنه تخسير للكاغط لأنه يجاب عنه بما ذكره أبو العباس أحمد المقري التلمساني – نزيل فاس ، دفع الله عنهما كل بأس – في أزاهر الرياض ونصه رضي الله عنه : رأيت بخط بعض الأكابر ما نصه : المقصود من التأليف سبعة : شيء لم يسبق إليه فيؤلف ،

أو شيء ألف ناقصًا فيكمل ، أو خطأ فيصحح ، أو مشكل فيشرح ، أو مطول فيختصر ، أو مفترق فيجمع ، أو منثور فيرتب ، إلى آخر ما ذكره رضي الله عنه . انظر أوّل حاشية الشيخ محمد الرهوني على الزرقاني تستفد بسط المعنى بأكثر من هذا المبنى .

ومن جمع المفترق ما عزمنا عليه بحول الله وقوته حرر الله قصدنا بمنّه وكرمه وأكرمنا بالإخلاص لأن الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وسميتها (**تحفة الأصفياء في بيان معنى القول بعصمة الأنبياء**) وقد آن لنا الشروع في مبداها ، وجعلت بسم الله مجراها ومرساها .

فنقول : ومن الله نرجو القبول قد تقرر أنه يجب على كل مكلف أن يعتقد عصمة الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) قبل النُبوَّة وبعدها ، كما قال صاحب المرشد المعين رضي الله عنه : يجب للرسل الكرام الصدق أمنة إلخ ، وكما قال اللقاني في الجوهرة وواجب في حقهم الأمانة إلخ ، ومرادهما بالأمانة الواجبة في حقِّ الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) العصمة وقد عبر بها اللقاني نفسه في الجوهرة أيضًا بعد في قوله : بالمعجزات أيدوا تكرمًا ، وعصمة الباري لكلٍّ حتمًا ، فهو من التعبير باللازم وإرادة الملزوم ، وهي - أعني العصمة - عبارة المتكلمين ، ولعل السرَّ في العدول عن عبارة المتكلمين للازمها الإشارة إلى التكليف بنفي أضدادها ، كما قاله الشيخ الطالب في حاشيته على صغير ميارة والشيخ الدسوقي في حاشيته على شرح أم البراهين للسنوسي ، وزاد الدسوقي إذ ورد « وإن لم تفعل فما بلّغت رسالاته » و« لئن أشركت ليحبطن عملك » تأمل ا .هـ.

ثم إنه ﷺ ينبغي لنا أن نقدم معنى العصمة لغةً واصطلاحًا ثم بعد نحقق معناها بما ذكره العلماء ﷺ في حق الأنبياء والرسل وغيرهم على ما يأتي إن شاء الله ، فاعلم يا أخي أن العصمة في اللغة مطلق الحفظ لقول صاحب المصباح عصمه الله من المكروه يَعْصِمُهُ من باب ضرب حفظه ووقاه اعْتَصَمْتُ بالله امتنعت به ، والاسم العصمة ا.هـ

وقال في المختار : والعصمة أيضًا الحفظ واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية ا.هـ

وقال في القاموس : العصمةِ بالكسر المنع ا.هـ

وفي الاصطلاح حفظ الله (تبارك وتعالى) للمكلف من الذنب مع استحالة وقوعه ولا يجوز لنا سؤال العصمة بهذا المعنى ، كأن يقال اللهم إنا نسألك العصمة ، فإن أُرِيد المعنى اللغوى جاز لنا سؤالها . انتهى بيجوري .

وسيأتى بيان ما فيه عن الإمام العدوي وقال الشيخ الطالب ﷺ في حاشيته على صغير ميارة : العصمة صفة توجب امتناع عصيان موصوفها والمختص بالأنبياء والملائكة وجوبها ، فلا يمتنع حصولها لغيرهم على جهة الجواز ا.هـ

ومثله للدسوقي في حاشيته على شرح أم البراهين للسنوسي وقال الشهاب ﷺ : قد تقرر أن العصمة عند المتكلمين أن لا يخلق في النبي ذنب .

وعند الحكماء : ملكة تمنع من الفجور وحاصلة من العلم بالقبائح والمحاسن فإنه الزاجر عن المعاصي والداعي للطاعة ويتأكد في الأنبياء بالوحي الإلهي ، وقيل العصمة خاصة في النفس أو البدن بسببها يمتنع عن صدور الذنب ويأباه أنه

لو كان كذا ما استحق المدح والثواب ؛ لأنها ليست داخلة تحت الاختيار وهم مكلفون بالاتفاق ، وفي التحرير لابن الهمام العصمة عدم القدرة على المعصية أو خلق مانع منها غير ملجئ ، وهو مناسب لقول الماتريدي : العصمة لا تزيل المحنة أي الابتلاء المقتضي لبقاء الاختيار ، ومعناه - كما في الهداية - أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية بل هي لطف من الله تعالى يحمله على فعله ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء .

واعلم أن العلاَّمة القرافي قال في التقييد شرح الأربعين الرازية العصمة لغة الامتناع ، ومنه العصم لبعض الوحش لبعده عن مظان الأذى وامتناعه واستعصم الرجل امتنع ، ومنه عصمة الزوجية ، وحملة الشرع يطلقون العصمة على معنيين : أحدهما : عدم المعصية في الجملة ومنه قولهم في الدعاء نسألك من العصمة تمامها والثاني : عصمة الأنبياء والملائكة عن الكفر دون سائر البشر مع أن الله تعالى أثنى على الخلق بدوام الإيمان ، فلابد من تفسير عصمة الأنبياء بغير عدم الكفر ، ومنع الله منه حتى يصح قولنا ليس أحد منا معصومًا وإن كنا غير كافرين مساوين للأنبياء في ذلك فتمييزهم إنما هو بإعلام الله تعالى لنا أنه صانهم في قضائه وقدره عن الكفر وقدر لهم السعادة الأبدية حتمًا مقضيًّا ، فهذا الإعلام الرباني هو عصمة الأنبياء والملائكة ومجموع الأمة دون كل واحد منهم انتهى ا.هـ كلام الشهاب في شرح الشفا .

وقال الشيخ بناني في حاشيته على المحلي على جمع الجوامع عند قول المصنف في الكتاب الثاني في السنة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معصومون لا يصدر عنهم ذنب ولو صغيرة سهوًا : في قوله لا يصدر عنهم ذنب إشعار بأن

العصمة عدم خلق الذنب في العبد كما هو الصحيح عند أهل السنة لا ملكة تلجئ إلى عدم الوقوع في الذنب كما هو المشهور عند المعتزلة ، إذ لو كان كذلك لم يحتج إلى تكليف الأنبياء مع أنهم أشد الناس في التكاليف ، ومن هذا قال أبو منصور الماتريدي : العصمة لا تزيل المحنة . وقال الشيخ زروق ﵁ في شرحه لحزب البحر للشاذلي ﵁ عند قوله نسألك العصمة في الحركات والسكنات . . .إلخ ، ما نصه : ثم العصمة تقع في نفس الأمر لمن خصه الله تعالى بها من نبي أو ولي أو غيرهما عمومًا إلا أنها واجبه للأنبياء فلا يصح تخلفها عنهم ، ولا دعواها من غيرهم لجواز النقائض عليهم وإنما يصح وصف غيرهم بالحفظ الذي هو انتفاء الذنب مع إمكان الوقوع فيه فالأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معصومون والأولياء ﵃ محفوظون في حكم الظاهر ، وقد يكون الحفظ من المعصية في علم الله لكن لا سبيل لنا إليه ، وإن كنا نطلب وجوده ، ونتحقق إمكانه ، والله تعالى أعلم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠١] وقال نوح لابنه : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] فقوله : نسألك العصمة ، يريد نطلب منك أن تمنعنا من الذنوب بالستر عنها حتى لا نعرف طريقها ولا تخطر لنا على بال ، ولا تنزل بنا في حال من الأحوال ا .هـ

قلت : ومن العصمة بالمعنى اللغوي قول صاحب المختصر في خطبته : والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا في القول والعمل . قال شارحه الدردير ﵁ : أي يحفظنا ويمنعنا ، قال محشيه الدسوقي ﵁ : قوله والله يعصمنا مأخوذ من العصمة ، وهي لغة الحفظ والمنع ، واصطلاحًا ملكة تمنع الفجور أي كيفية يخلقها الله تعالى في العبد تمنعه من ارتكاب الفجور بطريق جري العادة ، والمراد هنا :

المعنى اللغوي ، كما أشار له الشارح ا.هـ .

وقد تقدم قريبًا عن البيجوري أنه يجوز لنا طلبها بهذا المعنى ، فتنبه .

وقال : العارف بالله الجهبذ الفاضل المدقق ولي الله تعالى أبو عبد الله سيدي محمد الخرشي رضي الله عنه في شرحه لمختصر الشيخ خليل عند قوله أيضًا : والله يعصمنا من الزلل ما نصه : وفيه دليل على الجواز لذلك ا.هـ .

قال محشيه - نادرة زمانه وفريد عصره وأوانه أبو الحسن - مولانا علي العدوي رضي الله عنه : قوله وفيه - أي سؤال المؤلف وقوله لذلك أي لسؤال العصمة المطلقة أي لم تقيد بذنب مخصوص وإنما كان ذلك دليلاً لأن المؤلف من العلماء العاملين الذين يقلدون في الأقوال والأفعال ، ومقابل ذلك عدم جواز سؤالها لأن العصمة إنما هي للأنبياء والملائكة .

والجواب أنها في حق الأنبياء والملائكة واجبةٌ ، وفي حق غيرهم جائزةٌ ، وسؤال الجائز جائز ، وإنَّ الذي اختص به الأنبياء وقوعها لهم لا طلبها إلا أن الأدب سؤال الحفظ ، والحفظ في حقنا العصمة ، وقد يكون هذا هو المراد هنا ا. هـ وبعبارةٍ أخرى : والوجه كما قال بعضهم أنه إن قصد التوقي من جميع المعاصي والرذائل في جميع الأحوال امتنع لأنه سؤال مقام النبَّوة أو التحفظ من الشيطان والتحصن من أفعال السوء ، فهذا لا بأس به ، ويبقى الكلام حال الإطلاق ، قال بعض : والمتجه الجواز لعدم تعينه للمحذور واحتماله الوجه الجائز ، أشار لذلك الشيخ أبو بكر ا.هـ كلام العدوي رضي الله عنه هذا ما يتعلق بالعصمة لغةً واصطلاحًا بحسب ما تيسر في الوقت ، وفيه كفاية للمنصف ، وأما غيره فلا كلام معه .

وأما بيان معنى عصمة الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله : هو أنه يجب علينا في حق الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) أن نعتقد أن الله (تبارك وتعالى) حفظ ظواهرهم وبواطنهم من الوقوع في محرم أو مكروه أو خلاف الأولى بل ولا في مباح على وجه كونه مكروهًا أو خلاف الأولى أو مباحًا ، وقولنا في محرم سواء كان صغيرًا أو كبيرًا ، كان ذلك الصغير صغير خسة كسرقة لقمة وتطفيف كيل ، أو صغير غير خسة كنظر لامرأة أو لأمرد وإن بشهوة ، كان قبل النبوة أو بعدها ، عمدًا أو سهوًا ، اللهم إلا أن يترتب على وقوع المعصية تشريع فتقع سهوًا ، وفي الحديث : « **إني لا أنسى ولكن أُنسَّى لأَسُنَّ** » وذكر ابن أبي جمرة أن النبي ﷺ لم يسه إلا أربع مرات : سلم من اثنتين ، وقام من ثانية من غير تشهد ، وقام من خامسة ، وأسقط آية من سورة . وأنشد شارح المشارق :

ياسائلاً عن رسول الله كيف سها ... والسهو عن كل قلب غافل لاه

قد غاب عن كل شي سره فسها ... عمن سوى الله في التعظيم في الله

قال الشيخ العارف بالله سيدي أحمد التجاني أعاد الله علينا من بركاته وبركات أمثاله : إن للأكابر صدمات من قوة التجلى بسطوة جلاله ، فربما أفرطت بهم تلك الصدمة عن النظر في غير تلك الطاعة التي هم فيها لقوة التجلي لأن المطلوب منهم في الحضرة مراعاة حقوق الأوقات في كل آنٍ لا يغفل عن حق من الحقوق ، وقد تقع بهم لمات من قوَّة سلطان التجلي الإلهي فتؤثر فيهم غفلة عن الطاعة التي تأتي بعد فيمضي وقتها وهم ذاهلون عنها لقوَّة ما هم فيه ا .هـ

فإن قلت : إنه لا تكليف قبل البعثة فلا معصية قبلها فكيف يقال إنهم

معصومون من المعاصي قبل النبَّوة والحال أنه لا معصية قبلها .

أجيب : بأن المراد الصورة التي يحكم عليها بأنها معصية بعد البعثة لا تقع منهم قبل البعثة وإن كان لا يعلم أنها معصية إلا بعدها أفاد جميع هذا الشيخ الطالب في حاشيته على صغير ميارة – جزاه الله خيرًا – : (وقال الشيخ الطيب) ﷺ لدى قول المرشد أمنة ، ما نصه وهي حفظ جميع جوارحهم الظاهرة والباطنة عن الوقوع في منهي عنه نهي تحريم أو كراهة وذلك بالعصمة ، قال ابن أبي شريف : هي عدم قدرة المعصية أو خلق مانع منها غير ملجئ ، كذا في تحرير شيخنا ، وقال ابن التلمساني : هي عند الأشعرية تهيئة العبد للموافقة مطلقًا ا.هـ وهي عامة لجميع الأنبياء .

وتفصيل المقام أن يقال : الأنبياء معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع ، وأما غيره من الذنوب بعد النبوة فتعمد الكبائر جوزه الحشوية ومنعه جمهور الطوائف الاسلامية وهو الحق ، وإنما الخلاف في امتناعه بدليل السمع أو العقل ويستثنى من هذا الخلاف تعمد الكذب في الأحكام فعصمتهم منه محل وفاق قاله الكمال ابن أبي شريف ، وأما فعل الكبيرة سهوًا بعد الوحي فقال السعد : جوزه الأكثرون كذا في شرح النسفية ، وقال في شرح المقاصد : المذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقًا أي عمدًا أو سهوًا وأطلق عيَّاض الإجماع على عصمة الأنبياء من الكبائر فظاهره عمدًا أو سهوًا ، وأما الصغائر بعد النبَّوة ففي شرح النسفية للسعد تجوز عمدًا عند الجمهور خلافًا للجبائي وأتباعه ، وقال في شرح المقاصد : المذهب عندنا منع الصغائر عمدًا لا سهوًا ، وقد نوقش في نقله في شرح النسفية جوازها عمدًا عن الجمهور بأنه خلاف التحرير في النقل ، نبه

عليه الكمال ابن أبي شريف ، قال : وإطلاق ابن الحاجب في مختصره وتبعه العضد وغيره جواز صغيرة غير الخسة ينبغي حمله على السهو لا العمد ، وأما فعل الصغيرة سهوًا بعد النبَّوة فمنعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وأبو الفتح الشهرستاني والقاضي عياض والتقي السبكي كما في جمع الجوامع ، وكذا صحح المنع القاضي الحسين من الشافعية ، وحكى ابن برهان في الموجز اتفاق المحققين عليه ، قال المحلي : والأكثر على جواز الصغيرة سهوًا إلا الدلالة على الخسة كسرقة لقمة والتطفيف بثمرة وينبهون عليها ، ونحوه قول السيد الجرجاني في شرح المواقف أن الأشاعرة يقولون بجواز صدور الصغائر غير صغائر الخسة سهوًا بشرط أن ينبهوا فيتنبهوا وقول السعد في شرح النسفية ، وتجوز يعني الصغائر سهوًا بالإتفاق إلا ما يدل على الخسة . . . إلخ طريقة واهية ، ثم إن السهو بالصغيرة أو الكبيرة عند من جوزه عليهم ليس بذنب فلا ينافي وجوب الأمانة ، قال السعد : هذا كله بعد الوحي وأما قبله فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة ، وذهبت المعتزلة إلى امتناعها لأنها توجب النفرة المانعة عن اتباعهم ، فتفوت مصلحة البعثة والحق منع ما يوجب النفرة كعهر الأمهات والفجور في الآباء والصغائر الدالة على الخسة ، ومنع الشيعة صدور الصغيرة والكبيرة قبل الوحي وبعده لكنهم جوزوا إظهار الكفر تقية .

إذا تقرر هذا : فما نقل عن الأنبياء مما يشعر بكذب أو معصية فما كان منقولاً بطريق الآحاد فمردود ، وما كان منقولاً بطريق التواتر فمصروف عن ظاهره إن أمكن وإلا فمحمول على ترك الأولى أو كونه قبل البعثة ، وتفصيل ذلك في الكتب المبسوطة ا.هـ

قلت : ما نسبه للشيعة من امتناع المعصية قبل النبوة - كبيرة كانت أو صغيرة - قال به بعض أصحابنا واختاره عياض كما في شرح الكبرى ا.هـ كلام الشيخ الطيب وقريب من هذا ما ذكره الشيخ علي قارى في شرح الشفا أول الفصل الثاني من القسم الثالث منها .

وقال الشيخ عبد السلام اللقاني في شرحه لجوهرة والده الشيخ إبراهيم اللقاني رضي الله عنهما لدى قوله وواجب في حقهم الأمانة ، ما نصه : وهي - أي الأمانة الواجبة في حق الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) - اتصافهم بحفظ الله سبحانه - ظواهرهم وبواطنهم - ولو في حال الصغر من التلبس بمنهي عنه - ولو نهي كراهة - أي كونهم لا يتصور أن يكونوا عند الله إلا كذلك لأنه لو جاز عليهم أن يخونوا الله تعالى بفعل محرم أو مكروه لجاز أن يكون ذلك المنهي عنه مأمورًا به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، وهو لا يأمر بمحرم ولا مكروه فلا تكون أفعالهم محرمة ولا مكروهة ولا خلاف الأولى ا.هـ

قال محشيه : العلّامة الأمير رضي الله عنه قوله بحفظ الله سبحانه ظواهرهم . . . إلخ وما أوهم المعصية لا يجوز النطق به في غير مورده إلا للبيان وأصله حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ فآدم تأول أوله في ذلك مع سيده سر وإن لم نعلمه حتى نقل في اليواقيت عن أبي سعد بن التلمساني لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة كلها ولا تفهم رفعة مقامه على آدم أي وإنما كان يغلبه الحال لضعف ثباته بالنسبة لآدم ، ثم هو من سبق رحمة الله تعالى في سنه التوبة وعدم الإياس ، ويوسف همَّ لولا أن رأى برهان ربه ، فرؤية البرهان الجلالي مانعة من الهمّ والمراد همَّ بالتشديد في التخلص لولا أن رأى برهان الرأفة فتخلص بلطف بها لضعف المرأة ، ولا يليق ما

يقال الهم بالمعصية لا يكتب .

وقوله : ولو في حال الصغر هذا كقبل النبَّوة نظر الصورة المعصية ، وإلا فلا تكليف إذ ذاك ، وقوله ولو نهي كراهة ولو خلاف الأولى كما ذكره آخرًا ، ولعله راعى هنا من يجعله كراهة خفيفة وعلى فرض إذا وقع منهم صورة ذلك فللتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا ، وكذا المباح العادي على ما هو الأليق بالأدب بل في اتباعهم الأولياء من يصل لمقام تصير جميع حركاته وسكناته طاعات فيه بالنيَّات ا.هـ كلام الشيخ الأمير .

قلت : وسيأتي - إن شاء الله - بسط هذا المعنى بأكثر من هذا المبنى في كلام الشعراني رضي الله عنه في (اليواقيت والجواهر) وقد أطال في هذا المعنى أيضًا القاضي عياض في (الشفا) في القسم الثالث منها ، وأجاب رضي الله عنه عن الآي والأحاديث الموهمة بظاهرها خلاف ما ذكر في حق الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فلا ينبغي للطالب جهل ما ذكر هناك والله الموفق .

وقال البيجوري : رضي الله عنه لدى قول (الجوهرة) وواجب في حقهم الأمانة ، ما نصه : المراد بالوجوب هنا عدم قبول الانفكاك بالنظر للشرع لأن ما ذكر من الواجبات سمعي ، ولذا قال المصنف فيما يأتي ويستحيل ضدها كما رووا فأشار بذلك لي أنَّ استحالة ضدها بالدليل الشرعي فيكون وجوبها بالدليل الشرعي .

ثم قال : وقوله الأمانة بالنقل والدرج للوزن وهي حفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى فهم محفوظون ظاهرًا من الزنا وشرب الخمر والكذب وغير ذلك من منهيات الظاهر ، ومحفوظون باطنًا من

الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن ، والمراد المنهي عنه ولو صورة فيشمل ما قبل النبوَّة ولو في حال الصغر ولا يقع منهم مكروه ولا خلاف الأولى بل ولا مباح على وجه كونه مكروهًا أو خلاف الأولى أو مباحًا ، وإذا وقع صورة ذلك فهو للتشريع فيصير واجبًا أو مندوبًا في حقهم .

قلت : قال العلامة الجليل أبو العباس أحمد الأجهوري في تقريراته على هذه الحاشية : الظاهر أنه واجب لأن التشريع واجب في حقهم في جميع ما أمروا بتبليغه إلى الخلق ا.هـ

ثم قال البيجوري : فأفعالهم (عليهم الصلاة والسلام) دائرة بين الواجب والمندوب بل في الأولياء الذين هم أتباعه من يصل لمقام تصير حركاته وسكناته طاعة بالنيَّات ، وبهذا اندفع ما يقال : قد ثبت أنه ﷺ توضأ مرةً مرةً ومرتين مرتين وبال قائمًا وشرب قائمًا ، وأما المحرَّم فلم يقع منهم إجماعًا ، وما أوهم المعصية فؤوّل بأنه من باب : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

قلت : قال الأجهوري في تقريراته أيضاً : فيكون من قبيل خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامهم وإن كان حسنة بالنسبة إلى غيرهم وما تقدم من أنهم منزهون عن خلاف الأولى محمولٌ على ما هو خلاف الأولى في حق غيرهم ، وأما ما هنا فهو خلاف الأولى بالنسبة لمقامهم خاصة ، وأما بالنسبة لغيرهم فهو مستحسن ا.هـ

ثم قال البيجوري رضي الله عنه : ولا يجوز النطق به في غير مورده إلا في مقام البيان وما وقع من آدم فهو معصية لا كالمعاصي لأنه تأوّل الأمر لسر بينه وبين سيده وإن لم نعلمه حتى نقل في اليواقيت عن أبي مدين : لو كنت بدل آدم لأكلت الشجرة

بتمامها ، فهو – وإن كان منهيًا ظاهرًا – مأمور باطنًا ، وكذا يقال فيما وقع من إخوة يوسف على القول بأنهم أنبياء .

ودليل وجوب الأمانة لهم (عليهم الصلاة والسلام) : أنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه أو خلاف الأولى لكنا مأمورين به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم من غير تفصيل ، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه ولا خلاف الأولى فلا تكون أفعالهم محرمةً ولا مكروهةً ولا خلاف الأولى ، وهذا الدليل وإن كان على صورة الدليل العقلي هو في الحقيقة دليلٌ شرعي لأن دليل الملازمة شرعي وبطلان التالي بدليل شرعي وهو أن الله لا يأمر بالفحشاء ا.هـ كلام البيجوري مع زيادة تقريرات الأجهوري نبهت عليها .

وقوله حتى نقل في اليواقيت . . . إلخ : قد تقدم ما فيه عن الشيخ الأمير من قوله ولا تفهم رفعة مقامه على آدم . . . إلخ كلامه إلا أنه هناك نقل عن الشعراني في (اليواقيت) أن القائل لذلك أبو سعد ابن التلمساني والبيجوري نقل عنه أن القائل لذلك أبو مدين ، فحرر ذلك وسيأتي إن شاء الله كلام (اليواقيت) بلفظه وفي أم البراهين وشرحها للسنوسي ﵁ ما نصه : وأما برهان وجوب الأمانة لهم (عليهم الصلاة والسلام) فلأنهم لو خانوا بفعل محرم أو مكروه لا نقلب المحرم أو المكروه طاعة في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) لأن الله تعالى قد أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم ولا يأمر تعالى بمحرم ولا مكروه ، ولا شك أن الرسل (عليهم الصلاة والسلام) قد أُمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم إلا ما ثبت اختصاصهم به عن أممهم ؛ قال الله تعالى في حق نبينا ومولانا محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال : ﴿ وَٱتَّبِعُوهُ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ - ١٥٧] إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وقد علم من دين الصحابة ضرورة اتباعه عليه السلام من غير توقف على نظر أصلاً في جميع أقواله وأفعاله إلا ما قام به دليل على اختصاصه به فقد خلعوا نعالهم لما خلع (عليه الصلاة والسلام) نعله ، ونزعوا خواتمهم لما نزع عليه السلام خاتمه وحسر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما عن ركبتيهما في قصة جلوسهم على البئر كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وكاد يقتل بعضهم بعضاً من شدة الازدحام على الحلاق عندما رأوه صلى الله عليه وسلم يحلق رأسه وحل من عمرته في قصة الحديبية ، وكانوا يبحثون البحث العظيم عن هيئة جلوسه ونومه وكيفية أكله وغير ذلك ليقتدوا به ، وقال لهم (عليه الصلاة والسلام) لما أرادوا التبتل والانقطاع للعبادة ليلاً ونهارًا : « **أما أنا فآكل وأنام وأتزوج النساء** » أو كلامًا يقرب من هذا « **فمن رغب عن سنتي فليس مني** » فانظر كيف ردهم بفعله الذي لا معدل عن الاقتداء به عما قصدوه مع أنه يظهر قبل التأمل أن ما قصدوه هو من أكبر الطاعات وجهاد النفس ، وقد ثبت أن ابن عمر رضي الله عنهما لما سأله السائل عن صبغه بالصفرة ولبسه النعال السبتية ، وكونه لا يحرم إذا أهلّ هلال ذي الحجة ، وإنما يحرم في يوم التروية ، وكونه إنما يلمس الركنين اليمانين ، فأجابه بأنه استند في ذلك كله لفعله صلى الله عليه وسلم ، وقد أدار رضي الله عنه راحلته في موضع ، واعتل لذلك بأنه كذلك رأى النبي صلى الله عليه وسلم فعل .

وانظر قول عمر رضي الله عنه للحجر الأسود : لقد علمت أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ما قبلتك ، وقد ثبت عن بعض السلف ،

وأظنه الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه كان لا يأكل البطيخ ، فقيل له في ذلك ، فقال : منعني من أكله أنه لم يثبت عندي كيف أكله النبي ﷺ ، وبالجملة فالاتباع له ﷺ في جميع أفعاله وأقواله إلا ما اختص به ورؤية الكمال فيها جملةً وتفصيلاً بلا تردد ولا توقف أصلاً مما علم من دين السلف ضرورة ، ولا شك أن هذا دليل قطعي إجماعي على عصمته ﷺ ، وفي معناه عصمة سائر الرسل (عليهم الصلاة والسلام) من جميع المعاصي والمكروهات وأن أفعالهم (عليهم الصلاة والسلام) دائرة بين الواجب والمندوب والمباح ، وهذا بحسب النظر إلى الفعل من حيث ذاته ، وأما لو نظر إليه بحسب عوارضه فالحق أن أفعالهم دائرة بين الوجوب والندب لا غير لأن المباح لا يقع منهم (عليهم الصلاة والسلام) بمقتضى الشهوة ونحوها كما يقع من غيرهم بل لا يقع منهم إلا مصاحبًا لنية يصير بها قربة ، وأقل ذلك أن يقصدوا به التشريع للغير وذلك من باب التعليم وناهيك بمنزلة قربة التعليم وعظيم فضلها ، وإذا كان أدنى الأولياء لله يصل إلى رتبة تصير معها مباحاته كلها طاعات بحسن النية في تناولها فما بالك بخيرة الله تعالى من خلقه وهم أنبياؤه ورسله (عليهم الصلاة والسلام) لا سيما أفضل الخلق وأشرف العالمين جملةً وتفصيلاً بإجماع من يعتد بإجماعه سيدنا ومولانا محمد ﷺ ولأجل انحصار أفعالهم في الواجب والمندوب على هذا الذي ذكرناه اقتصرنا في أصل العقيدة على ما يقتضي الاختصاص بهما وهو الطاعة ، وزدنا التقييد بقولنا في حقهم إشارة إلى أن بعض أفعالهم وإن كان يطلق عليها الإباحة بالنظر إلى الفعل في نفسه وبالنظر إلى مطلق وجوده من عامة المؤمنين فهو في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) لكمال معرفتهم بالله تعالى وسلامتهم من دواعي النفس والهوى ، وأمنهم من طوارق الفترات والملل

يقظةً ونومًا ، وتأييدهم بعصمة الله تعالى في كل حال لا يقع منهم إلا طاعة يثابون عليها ، صلى الله وسلم على نبينا وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين .

ولتكن : أيها المؤمن على حذر عظيم ووجل شديد على إيمانك أن يسلب منك بأن تصغي بأذنك أو عقلك إلى خرائف ينقلها كذبة المؤرخين ، وتبعهم في بعضها بعض جهلة المفسرين ؛ فقد سمعت الحق الذي لا غبار عليه في حقهم (عليهم الصلاة والسلام) فشد يدك عليه ، وانبذ كل ما سواه ، والله المستعان ا.هـ كلام السنوسي رضي الله عنه وجزاه عنا خيرًا .

والحاصل من هذا كله : أنه يجب علينا معشر المكلفين تنزيه الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) عن كل ما يتبادر إلى أفهامنا من ذكر خطاياهم فإن خطاياهم لا ذوق لنا فيها ، وكيف ندعي ذلك ، وهم كما قال القاضي عياض في (الشفاء) : ظواهرهم بشرية ، وبواطنهم ملكية ، وقد تقرر أن الباطن حاكم في الظاهر بشهادة قوله ﷺ : « **إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » وقوله ﷺ : « **لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه** » وتقرر أيضًا أن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، سواء الرسل منهم أو غيرهم لأنهم معصومون أيضًا ، مع أن المعتمد في المعتقد أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) كما هو مبسوط في محله ، وستأتي الإشارة إليه آخر هذه الرسالة إن شاء الله ، فلا يجوز لنا قطعًا نسبة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلى الذنوب على حدّ مانتعقله نحن ، وإنما سماها الله تعالى في حقهم معصية وخطيئة وذلك لأن مقامهم الأرفع لا ذوق لولي فيه ، ولو ارتفعت

درجته فضلاً عن غيره من أمثالنا ، وذلك لأنهم معصومون من الوقوع في ذنوبنا ، وغاية خطاياهم إنما هو مثل نظرة إلى مباح أو لفظة رائحتها رعونة ومكروه وباطنها علم وصلاح .

ولله در **سيدي ابن عطاء الله** : إذ يقول في كتابه (التنوير في إسقاط التدبير) ونص ما قال رضي الله عنه : فائدة : اعلم أن التدبير والاختيار وباله عظيم وخطره جسيم ، وذلك أنا نظرنا فوجدنا أنَّ آدم عليه السلام إنما حمله على أكل الشجرة تدبيره لنفسه ، وذلك أن الشيطان قال لآدم وحواء عليهما السلام كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٠] ففكر آدم عليه السلام في نفسه فعلم أن الخلود في جوار الحبيب هو المطلوب الأسنى ، وانتقاله من الآدمية إلى وصف الملكية إما أن يكون لأن وصف الملكية أفضل أو ظن آدم عليه السلام أن ذلك أفضل فلما دبر عليه السلام في نفسه هذا التدبير أكل من الشجرة فما أتى إلا من عين وجود التدبير ، وكان مراد الحق منه ذلك لينزله إلى الأرض ، ويستخلفه فيها ، فكان هبوطاً في الصورة ، وترقيًا في المعنى ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله : والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه ، وإنما أنزله إلى الأرض ليكمله فلم يزل آدم عليه السلام راقيًا إلى الله تعالى تارة على معراج التقريب والتخصيص ، وتارة على معراج الذلة والمسكنة ، وهو في التحقيق أتم ويجب عل كل مؤمن أن يعتقد أن النبي والرسول لا ينتقلان من حالة إلا إلى حالة أكمل منها ، وافهم ها هنا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الضحى : ٤] قال ابن عطية : وللحالة الثانية خير لك من الأولى ، وإذ قد عرفت هذا فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى له التدبير والمشيئة ، وكان قد سبق من تدبير مشيئة أنه لابد أن يعمر

الأرض بني آدم ، وأن يكون منهم كما شاء منهم محسن وظالم لنفسه مبين وكان من تدبير حكمته أن لابد من تمام ذلك وظهوره إلى عالم الشهادة ، فأراد الحق سبحانه أن يكون تناول آدم للشجرة سببًا لنزوله إلى الأرض ونزوله إلى الأرض سببًا لظهور مرتبة الخلافة التي منَّ عليه بها .

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه أكرم بها معصية أورثت الخلافة وسنت التوبة لمن بعده إلى يوم القيامة وكان نزوله إلى الأرض بحكم قضاء الله تعالى قبل أن يخلق السموات والأرض ، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض قبل أن يخلقه كما قال سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] فمن حسن تدبير الله تعالى لآدم أكله من الشجرة ونزوله إلى الأرض وإكرام الله تعالى إياه بالخلافة والإمامة .

وإذ قد انتهى بنا المقال إلى ها هنا : فلنتبع الفوائد والخصائص التي منحها آدم عليه السلام في هذه الواقعة لنعلم أن لأهل الخصوص مع الله حالاً ليست لمن سواهم ، ولله فيهم تدبير لا يتوجه به لما عداهم ففي أكل آدم من الشجرة ونزوله إلى الأرض فوائد ؛ منها أن آدم وحواء عليهما السلام كانا في الجنة متعرفاً إليهما بالرزق والعطاء والإحسان والنعماء ، فأراد الحق سبحانه وتعالى من خفي لطفه في تدبيره أن يأكلا من الشجرة ليتعرف لهما بالحلم والستر والمغفرة والتوبة والاجتبائية .

أما الحلم فلأنه لم يعالجهما بالعقوبة حين فعلا والحليم هو الذي لا يعاجل بالعقوبة على ما صنعت بل يمهلك إما إلى عفوه وإنعامه وإما إلى سطوته وانتقامه .

الثاني : هو أن الله سبحانه وتعالى تعرف لهما بالستر ، وذلك أنهما لما أكلا منها وبدت

لهما سوآتهما بزوال ملابس الجنة سترهما بورقها كما قال الله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] فكان ذلك من وجود ستره .

الثالث : هو أنه أراد الحق ﷻ أن يعلمه باجتبائه له ، وينشأ عن اجتبائه مقامان : التوبة إليه ، والهداية من عنده ، فأراد الحق سبحانه أن يعرّف آدم عليه السلام باجتبائه له وسابق عنايته فيه ، فقضى عليه بأكل الشجرة ثم لم يجعل أكله إياها سبيلاً لإعراضه عنه ولا لقطع مدده منه ، بل كان في ذلك إظهار لوده ﷻ فيه وعنايته به كما قالوا من سبقت له العناية لم تضره الجناية ، ورب ود تقطعه المخالفة ، والود الحقيقي هو الذي يدوم لك من الواد لك - موافقاً كنت أو مخالفاً - وليس في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ [طه : ١٢٢] دليل على حدوث اجتبائية الحق فيه بل كان قبل وجوده ، وإنما الذي حدث بعد ذنب ظهور أثر الاجتبائية من الله له فهو الذي قال فيه الحق ﷻ : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ﴾ [طه : ١٢٢] أي أظهر له أثر الاجتبائية فيه والعناية به بتيسره للتوبة إليه والهداية من عنده فصار في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه : ١٢٢] تعريفات ثلاث : **الاجتبائية** ، **والتوبة** - التي هي نتيجتها - **والهدى** - الذي هو نتيجة التوبة - فافهم ثم أنزله إلى الأرض فتعرف له بحكمته كما تعرف له في الجنة ببواهر قدرته ، وذلك لأن الدنيا محل الوسائط والأسباب فلما نزل آدم عليه السلام إلى الأرض علم الحراثة والزراعة ، وما يحتاج إليه من أسباب معيشته ليحققه الله تعالى بما أعلمه به من قبل أن ينزله بقوله : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه : ١١٧] والمراد بقوله تعالى : ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ تعب الظواهر لا الشقاوة التي ضد السعادة والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ ولم يقل فتشقيا لأن المتاعب والكلف

إنما هي على الرجال دون النساء كما قال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] ولو كان المراد شقاء بالقطعية أو وجود الحجبة لقال : فتشقيا ، فدل الإفراد على أنه ليس الشقاء هنا بقطعيته ولا إبعاده مع أنه لو ورد كذلك لحملناه على الظن الجميل وأرجعناه إلى المتاعب الظاهرة على التأويل .

فائدة جليلة : اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عنادًا ولا خلافًا فإما أن يكون نسي الأمر فتعاطى الأكل وهو له غير ذاكر ، وهو قول بعضهم ، ويحمل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه : ١١٥] أو إن كان تناوله ذاكرًا للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فلحبه في الله وشغفه به أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره والبقاء عنده أو ما يؤديه إلى الملكية لأن آدم صلى الله عليه وسلم عاين قرب الملكية من الله ، فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل ، أو التي هي في ظنه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضًا أيهما أفضل الملكية أم النبوة لاسيما وقد قال تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢١] قال آدم عليه السلام : ما ظننت أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا فكان كما قال تعالى : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ا.هـ كلام ابن عطاء الله في (التنوير) رضي الله عنه وجزاه عنا أفضل الجزاء .

وقال الخازن في تفسيره : في سورة الأعراف عند قوله تعالى : ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ١٩ – ٢٠] الآية ما نصه : فصل

وقد استدل من يرى صدور الذنب من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) بهذه الآية وأجيب عنه بأن درجة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في الرفعة والعلو والمعرفة بالله ﷻ مما حملهم على الخوف منه والإشفاق من المؤاخذة بما لم يؤاخذ به غيرهم وأنهم ربما عوتبوا بأمور صدرت منهم على سبيل التأويل والسهو ؛ فهم بسبب ذلك خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ، وسيئات بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصٍ كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم وعمارة بواطنهم بالوحي السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله ﷻ ذنوبًا وهي حسنات بالنسبة إلى غيرهم كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، يعني أنهم يرونها بالنسبة إلى أحوالهم كالسيئات وهي حسنات لغيرهم ا.هـ كلام الخازن رضي الله عنه وجزاه خيرًا .

وقال أيضًا في تفسيره في سورة طه عند قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه : ١٢١] ما نصه : فصل في بيان عصمة الأنبياء وما قيل في ذلك قال الإمام فخر الدين الرازي : اختلف الناس في عصمة الأنبياء وضبط القول فيها يرجع إلى أقسام أربعة : أحدها : ما يقع في باب الاعتقاد ، وهو اعتقاد الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز عليهم ، الثاني : ما يتعلق بالتبليغ فقد اجتمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض وإلا لارتفع الوثوق بالأداء ، واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدًا ولا سهوًا ، ومن الناس من جوز ذلك سهوًا قالوا : لأن الاحتراز عنه غير ممكن ، الثالث : ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على أنه لا يجوز خطؤهم فيها على سبيل العمد ، وأجازه بعضهم

على سبيل السهو ، الرابع : ما يقع في أفعالهم فقد اختلفت **الأمة** فيه على خمسة أقوال : أحدهما : قول من جوز عليهم الكبائر ، **الثاني** : قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد – وهو قول أكثر المعتزلة ، **الثالث** : لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل – وهو قول الجبائي ، **الرابع** : أنه لا يقع منهم الذنب إلا على جهة السهو والخطأ ، الخامس : أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل ، وهو قول الشيعة ، واختلف الناس في وقت العصمة على **ثلاثة أقوال** : أحدها قول من ذهب إلى أنهم معصومون من حين وقت الولادة – وهو قول الشيعة ، **الثاني** : قول من ذهب إلى عصمتهم من وقت بلوغهم – وهو قول أكثر المعتزلة ، **الثالث** : قول من ذهب إلى أن ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة – وهو قول أكثر أصحابنا وأبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة ، قال الإمام : والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم ذنب – لا صغيرة ولا كبيرة – من حين جاءتهم النبوة ، ويدل عليه وجوه :

أحدها : لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من أحد الأمة ، وذلك غير جائز لأن درجة الأنبياء غاية في الرفعة والشرف .

الثاني : لو صدر منه وجب لأن لا يكون مقبول الشهادة ، فكان أقل حالاً من عدول الأمة ، وذلك غير جائز أيضاً لأن معنى النبوة والرسالة هو أن يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم وأيضا فإنه يوم القيامة شاهد على الكل .

الثالث : لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه ، وذلك محال .

الرابع : ثبت ببديهة العقل إنه لا شيء أقبح بمن رفع الله درجته ، وائتمنه على

وحيه وجعله خليفته في عباده وبلاده يسمع ربًّا يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحًا لغرضه ، واجتمعت الأمة على أن الأنبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة : ٤٤] وقال : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾ [هود : ٨٨] .

الخامس : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغي فعله ، وترك ما ينبغي تركه ، فثبت أن الأنبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهي ، وذلك ينافي صدور الذنب عنهم .

السادس : قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج : ٧٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران : ٣٣] وقال تعالى في حق موسى : ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف : ١٤٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٨] وغير ذلك من الآيات التي تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة وذلك ينافي صدور الذنب عنهم ، وذكر غير ذلك من الوجوه ، قال : وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه .

والجواب عنها : أن نقول : إن كلامهم إنما يتم أن لو بينوا بالدلالة أن ذلك كان حال النبو ة ، وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال أن آدم حال ما صدرت عنه هذه الأشياء ما كان نبيًّا ، وإن هذه الواقعة كانت قبل النبوة ، وإن الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة .

وقال القاضي عياض : وأما قصة آدم وقوله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه : ١٢١] أي جهل ، وقيل : أخطأ ؛ فقد أخبر الله تعالى بعذره في قوله : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه : ١١٥] أي نسي عداوة إبليس له وما عهد الله إليه ، وقيل : لم يقصد المخالفة استحلالاً لها ، ولكنه اغتر بحلف إبليس له : ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف : ٢١] وتوهم أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا ، وقيل : نسي ولم ينوِ المخالفة فلذلك قال : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ أي قصدًا للمخالفة ، وقيل : بل أكل من الشجرة متأولاً ، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نهى عنها لأنه تأوّل نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ، ولهذا قيل : إنما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة ، وقيل : تأول أن الله تعالى لم ينهه عنها نهي تحريم .

فإن قلت : إذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصي فما معنى قوله تعالى ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ﴾ [طه : ١٢١] وما تكرر في القرآن والحديث من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وإشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم ، وهل يتوب ويستغفر من لا شيء عليه .

قلت : إن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته في عباده

سلطانه وقوة بطشه مما جعلهم مما يحملهم على الخوف منه ﷻ والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم ، وأنهم في تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا بها ، وأتوها على وجه التأويل أو السهو ، وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة ، أو أخذوا عليها وعوتبوا بسببها ، أو حذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى علو منصبهم ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم لا أنها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين أي يرونها بالإضافة إلى علو أحوالهم كالسيئات ا.هـ كلام الخازن رضي الله عنه وجزاه خيرًا .

وقال : الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام الجامع بين الشريعة والحقيقة ذو المواهب الربانية والمعارف الصمدانية سيدنا ومولانا عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في كتابه المسمى باليواقيت والجواهر ما نصه : (المبحث الحادي والثلاثون في بيان عصمة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) من كل حركة أو سكون أو قول أو فعل ينقص مقامهم إلا كمل ، وذلك لدوام عكوفهم في حضرة الله تعالى الخاصة فتارة يشهدونه تبارك وتعالى وتارة يشهدون أنه يراهم ولا يرونه ولا يخرجون أبدًا عن شهود هذين الأمرين ومن كان مقامه كذلك لا يتصور في حقه مخالفة قط حقيقية وإنما هي مخالفة صورية كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، وتسمى هذه حضرة الإحسان ، ومنها عصم الأنبياء وحفظ الأولياء ، فالأولياء يدخلون ويخرجون ، والأنبياء مقيمون فيها ، ومن أقام فيها من الأولياء كسهل بن عبد الله التستري وسيدي إبراهيم المتبولي فإنما ذلك بحكم الإرث والتبعية للأنبياء استمدادًا من مقامهم لا بحكم الاستقلال فافهم .

إذا علمت ذلك فلنذكر لك نقول المتكلمين في مبحث العصمة ثم نقول الصوفية فنقول وبالله التوفيق :

قال أئمة الأصول : الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) كلهم معصومون لا يصدر عنهم ذنب – ولو صغيرة سهوًا – ولا يجوز عليهم الخطأ في دين الله قطعًا وفاقًا للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني وأبي الفتح الشهرستاني والقاضي عياض والشيخ تقي الدين السبكي وغيرهم ، وقال جماعة : لا ينبغي إجراء الخلاف في الأنبياء والمرسلين أبدًا ، وإنما الخلاف في الأنبياء الذين لم يرسلوا ، وهو كلام محشو أدبًا ، وذلك لتوقف حجية الرسل على القول بالعصمة ، وأيضًا فإن الرسول مشرع لنا بجميع أقواله وأفعاله وتقريراته ، فلو أنه صدق عليه الوقوع في معصيةٍ ما لصدق عليه تشريع المعاصي ، ولا قائل بذلك أبدًا ، وعبارة الشيخ محيي الدين في الفتوحات ، ويشترط في حق الرسول العصمة في جميع ما يبلغه عن الله ﷻ فإن عصم في غير ما يبلغه فمن مقام آخر كان يخاطب بالتأسي به فيصير ذلك التأسي أصلاً لا يجوز عليه فعل حرام قطعًا ولا فعل مكروه إلا لبيان الجواز ا.هـ

وكان إمام الحرمين رحمه الله يقول : من جوز وقوع الصغيرة من الأنبياء سهوًا قيدها بغير الدالة على الخسة كسرقة لقمة والتطفيف في الكيل والوزن بثمرة مثلاً ثم لابد أن ينبهوا عليها على الفور ، وأما استغفاره ﷺ أكثر من سبعين مرة كما ورد فكان لأجل الترقي في المقامات ، فكان يستغفر من كل مقام ترقى عنه ، وثم مقام رفيع وأرفع .

وكان الإمام الجنيد يقول في حديث « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في

اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة » إن المراد « **إنه ليغان على قلبي** » مما اطلعت عليه مما يقع لأمتي بعدي من المخالفات فأستغفر الله لهم أكثر من سبعين مرة ا.هـ

وقال جماعة من علماء الأصول : الأنبياء الذين لم يرسلوا معصومون قطعًا من غير خلاف ، ومن قال فيهم غير ذلك فعليه الخروج من عهدته بين يدي الله ﷻ وبين يديهم ؛ فإن بداية النبوة تؤخذ من بعد انتهاء الولاية فمن أين يتعقل الواحد منا اسم ذنوب الأنبياء ، وقد قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين فافهم ، والزم الأدب ، وأجب عن الأنبياء عليهم السلام جهدك كل من كان في حجاب عن مقامهم ، وأي فائدة لتجريح من عدَّله الله تعالى ، هل يثاب أحد على ذلك ؟ لا والله بل ذلك إلى الأثم أقرب .

وقال الشيخ أبو طاهر القزويني في الباب الخامس والثلاثين من كتاب سراج العقول يجب تنزيه الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) عن كل ما يتبادر إلى أفهامنا من ذكر خطاياهم فإن خطاياهم لا ذوق لنا فيها ، وإن الله تعالى لما اصطفى الأنبياء في سابق علمه للنبوة وأداء الرسالة رشحهم لذلك في مبادئ أمورهم وحماهم من مكايد الشيطان وصفى سرائرهم من الكدورات وشرح صدورهم بنوره وزينهم بالأخلاق الجميلة وطهرهم عن الرجس والرذائل كما روي في الصحيح « **إن جبريل أتى إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الصبيان فأخذه وصرعه وشق عن قلبه فاستخرج منه شبه علقة ، وقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب من ماء زمزم ثم لأمه وعاد كما كان في مكانه** » .

قال : وصورة الشق ليست مثل شق الذبح بالسكين وإنما المراد به كشف

باطنه بيد جبريل من غير ألم يصيبه أو دم يصيبه وحاشا حاشاه ﷺ من ذلك قال : وهذا قريب من إخراج الله الذرية من ظهر آدم عليه السلام بمسح اليد كما يليق بجلاله وسبب توقف العقول الضعيفة ووقوع الاشتباه في مثل ذلك تعذر الخروج عن المألوفات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ ﴾ [الشرح : ١] فلم يكن فيه بعد ذلك للهوى منفذ ولا للشيطان عليه سبيل ، وأطال في ذلك .

وقال الشيخ العارف بالله تعالى الجامع بين الطريقين سيدي عبد العزيز الدريني رضي الله عنه : لا يجوز قطعًا نسبة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) إلى الذنوب على حد ما نتعلقه نحن وإنما سماها الله تعالى في حقهم معصية وخطيئة وذلك لأن مقامهم الأرفع لا ذوق لولي فيه ، ولو ارتفعت درجته فضلاً عن غيره من أمثالنا وذلك لأنهم معصومون من الوقوع في ذنوبنا وغاية خطاياها إنما هو مثل نظرة إلى مباح أو لفظة رائحتها رعونة ومكروه وباطنها علم وصلاح مثل قول إبراهيم (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) في معرض إقامة الحجة على قومه ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وكما وقع له من قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩ ﴾ [الصافات : ٨٩] حتى لا يخرج مع قومه إلى ما دعوه إليه من اللهو واللعب أي مآلي إلى السقم ونحو ذلك انتهى .

وقال : الشيخ في الباب الثاني والسبعين وثلثمائة من (الفتوحات المكية) يجب قطعًا تنزيه الأنبياء مما نسبه إليهم بعض المفسرين من الطامات الكبرى مما لم يجئ في كتاب ولا سنة صحيحة ، وهم يزعمون أنهم قد فسروا قصصهم التي قصها الله في ذلك وجاؤا فيه بأكبر الكبائر ، وذلك كمسألة إبراهيم الخليل عليه السلام وما نسبوه إليه من وقوع الشك بحسب ما يتبادر إلى الأذهان ، وما نظروا في

قوله ﷺ : « **نحن أولى بالشك من إبراهيم** » فإن إبراهيم عليه السلام لم يشك في إحياء الله الموتى معاذ الله أن يشك نبي في مثل ذلك ، وإنما كان يعلم أن لإحياء الله الموتى طرقًا ووجوهًا متعددة لم يدرِ بأي وجه منها يكون إحياء الله تعالى للموتى ، وهو مجبول على طلب الزيادة من العلم ، فعين الله تعالى له وجهًا من تلك الوجوه ، فسكن ما كان عنده ، وعلم حينئذ كيف يحيي الله الموتى ، فما كان السؤال إلا عن معرفة الكيف لا غير ، وكذلك القول في قصة سليمان وما نسبوه إلى الملكين ببابل هاروت وماروت كل ذلك لم يرد في كتاب ولا سنة ، وإنما ذلك نقل عن اليهود فاستحلوا أعراض الأنبياء والملائكة بما ذكروا لهم من تجريحهم أنبياء الله تعالى وملؤوا تفاسيرهم للقرآن من ذلك ، فالله تعالى يحفظنا وإخواننا من غلطات الأفكار والأفعال والأقوال آمين ا .هـ

وقال **أيضًا** في الباب الرابع والخمسين ومائة : ينبغي للواعظ إن يراقب الله تعالى في أنبيائه وملائكته ويستحي من الله عز وجل ويجتنب الطامات في وعظه كالقول في ذات الله بالفكر والكلام على مقامات الأنبياء عليهم السلام من غير أن يكون وراثًا لهم فلا يتكلم قط على زلاتهم بحسب ما يتبادر إلى أذهان الناس بالقياس على غيرهم فإن الله تعالى قد أثنى على الأنبياء أحسن الثناء بعد أن اصطفاهم من جميع خلقه ، فكيف يستحل أعراضهم بما ذكره المؤرخون عن اليهود ، قال : ثم إن الداهية العظمى جعلهم ذلك تفسيرًا لكلام الله تعالى ، ويقولون في تفسيرهم : قال المفسرون في قصة داود : إنه نظر إلى امرأة أوريا فأعجبته ، فأرسله في غزاة ليموت ، فيأخذها ، وكقولهم في قصة يوسف عليه السلام أنه هم بالمعصية ، وأن الأنبياء لم يعصموا عن مثل ذلك ، وكقولهم في قصة قوم لوط لو أن لى بكم قوة أو

آوي إلى ركن شديد العجز والتحري ونحو ذلك ، ويعتمدون على تأويلات فاسدة وأحاديث واهية نقلت عن قوم قالوا في الله ما قالوا من البهتان والزور ؛ فمن أورد مثل ذلك في مجلسه من الوعاظ مقته الله والأنبياء والملائكة ؛ لكونه جعل دهليزًا ومهادًا لمن في قلبه زيغ يدخل منه إلى ارتكاب المعاصي ويحتج بما سمعه منه في حق الأنبياء ، ويقول : إذا كان الأنبياء وقعوا في مثل ذلك ، فمن أكون أنا ؟! وحاشا الأنبياء كلهم عن ذلك الذي فهمه هذا الواعظ ، فوالله لقد أفسد هذا الواعظ الأمة ، وعليه وزر كل من كان سببًا لاستهانته بما وقع فيه من المعاصي ، ولكن قد ورد أنه « لا تقوم الساعة حتى يصعد الشيطان على كرسي الوعظ ويعظ الناس » وهؤلاء من جنوده الذين يتقدمونه ا.هـ

فإن قلت : فما الفرق بين العصمة والحفظ ؟

فالجواب : الفرق بينهما أن الأنبياء معصومون من المباح لهوى أنفسهم بخلاف الأولياء ، فإذا فعل الأنبياء المباح لا يفعلونه لهوى أنفسهم كغيرهم ، وإنما يفعلونه على جهة التشريع أنه مباح فهو واجب عليهم حينئذ – يعني فعل المباح – إذ التبليغ واجب عليهم ، ذكره الشيخ محيي الدين في آخر باب سجود التلاوة من (الفتوحات المكية) .

وقد حبب لي : أن أذكر لك بعض أجوبة عن بعض الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) مبتدئًا بآدم عليه السلام خاتمًا بمحمد ﷺ فتحًا لباب الأجوبة عن باقيهم ، فأقول وبالله التوفيق :

اعلم : أن آدم (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) أول فاتح لباب التوبة حين وقع على يديه

ما وقع من أكل الشجرة بعد النهي عنها ، فكانت معصية صورية ليعرف بنيه كيف يفعلون إذا وقعوا في المنهي عنه لأنه عليه السلام هو فاتح القبضة ، ولو لم يقع ذلك على يديه لوقع على يد غيره ، وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب التاسع والثلاثين من (الفتوحات) : كانت معصية آدم عليه السلام من عين نعمة الله تعالى عليه لأن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا ينقلون قط من حال إلا لأعلى منها ؛ فإن الله تعالى اجتباهم واصطفاهم بسابق العناية فلا يمكر الحق تعالى بهم أبدًا .

قال : ومن هنا يعلم أن هبوط آدم عليه السلام وحوّاء إلى الأرض لم يكن عقوبة لهما وإنما كان عقوبة لإبليس وحده ؛ فإن آدم عليه السلام أهبط بصدق الوعد السابق بأن يكون خليفة في الأرض من بعد ما تاب الله عليه واجتباه وبعد ما تلقى الكلمات من ربه بالاعتراف فكان اعترافه (عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام) في مقابلة قول إبليس أنا خير منه ... إلخ ، فعرفنا الحق تعالى مقام الاعتراف عند الله تعالى وما ينتجه من السعادة لنتخذ ذلك طريقًا إذا خالفنا أوامر ربنا ، فكان ما وقع من آدم كالتعليم لبنيه إذا وقعوا في مخالفة كيف يون خلاصهم وتنصلهم منها كما مر ، وأما إبليس فعرفنا الحق تعالى بدعواه الخيرية أن كل من اتبعه في هذه الدعوى طرد من حضرة الله ولعن ورجم لنحذر من أن نقول نحن خير من فلان ، فلذلك كان هبوط إبليس إلى الأرض عقوبة له دون آدم ، فما هبط إبليس إلى الأرض إلا لاكتساب الأوزار بخلاف آدم عليه السلام فإنه أهبط للخلافة والترقي في الدرجات ؛ فإن جميع حسنات بنيه في صحائفه ، وليس عليه من أوزارهم شيء .

فإن قلت : إن معصية إبليس لا تقتضي تأبيد الشقاء لأنه لم يشرك بالله شيئًا ، وإنما افتخر على آدم عليه السلام بما جبله الله عليه من الطبيعة التي هي النار لكونها

أقرب إلى اسمه تعالى النور لما فيها من الإضاءة بخلاف الطين .

فالجواب : إنما جاء الشقاء الأبدي من اعتراضه على الله ونسبة أفعاله إلى غير الحكمة مع إضماره في نفسه أنه لو بقى أبد الآبدين لوسوس للناس بالضلال فجوزي بنظير فعله ونيته ورجع عليه وزر كل مشرك على وجه الأرض ، وقد قال الشيخ أبو مدين : إنما خلد أهل الجنة والنار بالنيات وإلا فكان العدل أن يعذب الكفار بمدة عصياهم .

فإن قلت : فهل قوله حين تبرأ من الذين كفروا بقوله : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ ﴾ [الحشر : ١٦] توحيد يسعد به أم لا ؟

فالجواب : ليس هو بتوحيد لأنه لا يقدر يوسوس لأحد بالشرك حتى يتصوره في نفسه على الصورة التي إذا حصلت في نفس المشرك زالت عنه صورة التوحيد فإذا تصورها في نفسه كهذه الصورة فقد خرج عن التوحيد ضرورة فلم يسعد به فكان إبليس مشركاً في نفسه بلا شك ولا ريب ، ثم لو قدر أن صفة الشرك ذهبت من نفسه لم يجد المشرك في نفسه من يحدثه بالشرك فاعلم أن إبليس أول مشرك بالله ، وأول من سنَّ الشر فهو أشقى العالمين .

فإن قلت : فما الحكمة في قوله تعالى في آدم عليه السلام عصى وفي إبليس أبى ؟

فالجواب : ما قاله الشيخ في الباب السابع والستين وثلثمائة أن ذلك من علوم الأسرار ولا يذكر إلا مشافهة لأهله .

فإن قلت : فهل إبليس يجهل شيئاً من شرائع الأنبياء عليهم السلام ؟

فالجواب : هو عالم بها كلها على الكمال ، وذلك ليوسوس للناس بضد ما

أمرت الأنبياء به ، ولولا علمه بها لربما التبس عليه الأمر ، فأمر الناس بما أمرت به الرسل ، وذلك لا يصح منه ، وقد ذكر الشيخ في باب الحج من (الفتوحات) أن من أغرب الأمور أن إبليس يقف كل سنة مع الناس ولكن لا يقف في عرفة وإنما يقف في عرنة بفتح الراء ، وهي من عرفات فيقف يبكي على ما فاته من طاعة الله ﷻ ويحزن على ما فاته ولم يراه يحصل لأهل الموقف من المغفرة العامة فيقف لعرنه لعلمه أنها من عرفة رجاء أن تصيبه الرحمة من باب الامتنان لا من باب الأعمال الصالحة ، قال : وإنما لم تطرده الملائكة عن عرنة لعلمهم بأن عنده معرفة الله ﷻ ودخول المشركين المساجد جائز في الجملة ا.هـ

فإن قلت : فما الحكمة في وقوع آدم ﵇ في أكله من الشجرة ثم نزوله بعد ذلك إلى الأرض التي هي دون الحضرة التي كان فيها ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب التاسع والثلاثين أن الحكمة في ذلك كله تأنيس العلماء والأولياء إذا وقعوا في زلة فانحطوا عن مقامهم العلي ، وظنوا أنهم نقصوا بذلك عند الله تعالى فيعلمون بقصة آدم ﵇ أن ذلك الانحطاط الذي أحسوا به في نفوسهم لا يقضي بشقائهم ولابد فربما يكون هبطهم كهبوط آدم للتكريم ، والحق تعالى لا يتحيز ، والوجود العلوي والسفلي كله حضرته ، فليست السماء التي أهبط منها أقرب إلى الحق من الأرض ، وإذا كان الأمر على هذا الحد فعين هبوط الولى في عيون الناس بعد الزلة وذله وانكساره بسببها هو عين الترقي فقد انتقل بالزلة إلى مقام أعلى مما كان فيه لأن علو الولي إنما يكون بزيادة المعرفة والحال ، وقد زاد هذا الولي بحصول الذلة والانكسار من العلم بالله تعالى ما لم يكن عنده قبل الزلة ، وهذا هو عين الترقي ، فعلم أن من فقد هذه الحالة في زلته ولم

يندم ولم ينكسر ولا ذل ولا خاف مقام ربه فهو في أسفل سافلين ، ونحن ما تتكلم إلا على زلات أهل الله ﷻ إذا وقعت منهم قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾ [آل عمران : ١٣٥] الآية ، وقال ﷺ : « الندم توبة » وقيل لأبي يزيد البسطامي : أيعصى العارف ، فقال : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فلم يقل لا يعصى ، ولا أنه يعصى أدبًا مع الله تعالى ، ومعنى : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا أي أن معصية أهل الله تعالى بحكم القدر النافذ فيهم لا غير ، ولا يصح في حقهم أن يقعوا في المعاصي قط بشهوتها كما يقع فيها غيرهم لأن في ذلك انتهاكًا لحرمات الله تعالى وأهل الله تعالى محفوظون من شهوة المعاصي والتلذذ بها ؛ فإن الإيمان المكتوب في قلوبهم يمنعهم من ذلك قال سيدي علي الخوَّاص (رحمه الله تعالى) : ومن حكمة وقوع العبد في المخالفة للأوامر وقوعه في مقام الإذلال بالطاعات وعُجْبه بها فإن توالي الطاعات الصرف ليلاً ونهارًا تورث غالب الناس الزَّهو والعجب وشهود أنه خير من كثير من الناس ، وهذا غاية البعد من حضرة الله ﷻ وما جعل الله تعالى التكاليف إلا ليذل بها النفوس من بين يديه ، ولا يرى بها المكلف شرف نفسه على أحد من خلق الله تعالى ؛ فإن ذلك ذنب إبليس الذي أخرج به من حضرة الله ﷻ وكل من ادعى مقام القرب مع عدم الاذلال فهو كاذب ا .هـ

فإن قلت : قد ورد أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة اسودَّ جسده ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن ذلك يؤذن بأن آدم عليه السلام أثرت فيه المعصية نقصانًا .

فالجواب : ليس اسوداد بدنه علامة على نقصه بل هو علامة على حصول سيادته كما ذكره الشيخ في الباب الثاني والسبعين في الكلام على حديث « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بني آدم » قال :

وكذلك القول في اسوداد جسد آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة يدل على سيادته لأن ذل أورثه الاجتباء والاصطفاء ولولا أكله من الشجرة ما ظهرت سيادته ، وكذلك الحجر الأسود لما خرج من الجنة وهو أبيض فلابد من أثر يظهر عليه تعرف به سيادته في دار الدنيا إذا رجع إلى الجنة ويتميز به عن أقرانه ويظهر به عليه خلعة التقريب الإلهي في جعله يمين الله في الأرض ولم يكون من الأكوان ما يدل على السيادة إلا اللون الأسود ، فكساه الله تعالى لون السواد إعلامًا لنا بأنه صار سيدًا بخروجه من الجنة إلى الدنيا .

قلت : ولعل من هذا القبيل جعل ستر الكعبة أسود ، وكذلك عمائم خلفاء بني العباس وغيرهم ، ولعل ذلك هو سر لبسه ﷺ العمامة السوداء يوم فتح مكة إظهارًا لسيادته على الخلق من باب التحدث بالنعمة ، فعلم أن معنى قوله في الحديث « **فسوَّدته خطايا بني آدم** » أي جعلته سيدًا بتقبيلهم إيَّاه وكذلك القول في اسوداد جلد آدم هو يدل على سيادته لأن هبوطه إلى الأرض هبوط خلافة له للتناسل والترقي .

فإن قلت : فما الوجه الجامع بين سواد الحجر وجلد آدم وبنيه ؟

قلنا : وجهه الاجتباء والسيادة فكان تقبيل الحجر يشبه الاجتباء والاصطفاء لآدم عليه السلام وبنيه بسبب خطاياهم .

فإن قلت : فلم أمر الناس بالسجود على هذا الحجر وتقبيله والتبرك به ؟

فالجواب : إنما أمروا بذلك ليكون كفارة لهم من خطاياهم فظهرت سيادته بذلك ، وحصل به تمييز القائم بآداب العبودية والمخل بالقيام بها ؛ فإن بني آدم ربما

زهوا بالصورة التي خلقوا عليها وبالكمالات التي خلعها الحق عليهم على ما سواهم ، فأمرهم الحق تعالى إلى جهة الجماد الذي هو الكعبة مع أنه أنقص رتبة منهم فمنهم من أطاع ، فرضي الله تعالى عنه ، ومنهم من عصى فسخط الله عليه .

فإن قلت : قال القوم : إن حصول معرفة الله ﷻ للعبد تمنعه من الوقوع في معصية الله وآدم عليه السلام من رؤوس العارفين بالله ﷻ فكيف وقع في أكله من الشجرة ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب السابع ومائتين أن المعرفة تمنع العارف بلا شك ، ولكن إذا أراد الله تعالى أن يوقع أحدًا من الأكابر فيما قدره عليه لحكمة سبق بها علمه فلابد أن يزين الله تعالى له الوقوع في ذلك بتأويل يقع له فيه وجه الحق ولا يقصد بذلك العمل انتهاك الحرمة كما وقع لآدم عليه السلام ثم إذا وقع ذلك المقرب في المعصية بذلك التأويل أظهر الله له فساده فإذا تحقق بعد الوقوع أنه أخطأ علم أنه عصى فعند ذلك يحكم عليه لسان الشريعة بأنه عصى ويشهد على نفسه عند نفسه أنها عصت ، وأما في حال وقوع الفعل منه فلا لأجل شبهة التأويل فهو كالمجتهد في زمان فتواه بأمر ما اعتقادًا منه أن ذلك عين الحكم المشروع في المسألة وفي ثاني الحال يظهر له بالدليل أنه أخطأ فيكون لسان الظاهر يحكم عليه أنه أخطأ في زمان ظهور الدليل لا قبل ذلك .

فإن قلت : فهل تكون عقوبة العارفين على الذنب أشد أم عقوبة الجاهلين ؟

فالجواب : أن عقوبة العارفين بالله تعالى أشد لشدة اعتناء الحق تعالى بهم وربما كانت زلة العارف ترجح على سبعين زلة من زلات الجاهل ، ولو لم يكن من

عقوبة العارف إلا ما يحصل عنده من الاستحياء والخجل لكان ذلك كفاية بل ربما كان ذلك الخجل أشد على العارف من العقوبة الظاهرة ، كما أن المغفرة أشد عليهم من العقوبة ، وذلك لأن العقوبة جزاء فيجد العبد الراحة عند الاستيفاء منه فهو في منزلة من أوفى دينه ، والغفران ليس كذلك ، فلا يزال العارف ملازم الخجل والحياء مدة طويلة ، وذلك أشد من العقوبة الشديدة في يوم وتنقضي كما قال تعالى : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] ولهذا المعنى الذي ذكرناه كان الحق تعالى إذا اعتنى بعبده وغفر له ذنبه أحال بينه وبين تذكره وأنساه إياه لأنه لو تذكره لاستحيا ولا عذاب على النفوس الطاهرة الشريفة أعظم من أن ينعم عليها من هي مسيئة في حقه حتى إنَّ صاحب الحياء يود أنه لم يكن شيئًا مذكورًا كما قالت الكاملة ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾ [مريم : ٢٣] مع إن حياءها إنما كان من المخلوقين حين نسبوا إليها ما لا يليق بها ولا بأبيها وأمها كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم : ٢٨] فبرأها الله تعالى مما نسب إليها لأجل ما نالها من عذاب الحياء من قومها فكيف بالحياء من رب العالمين فيما يحققه العبد من تعدي حدوده ومجاهرته بالمعاصي .

فإن قلت : فهل يلزم من كون الحق تعالى ينسي عبده سيئاته أن تكون بدلت حسنات كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان : ٧٠]

فالجواب : لا يلزم ذلك ولكن قال بعض العارفين إن في نسيان العبد ذنوبه بالكلية بشرى عظيمة من الله بأنه بدل سيئاته حسنات ؛ فإن من علامة التبديل

نسيان الذنب ، وذلك أن الذنب إذا بدله الله بحسنات لم يبق للذنب صورة وجود من الوجودات الأربع ، ويؤيد ذلك قول بعض العارفين كل ذنب لم يذهب من ذهن الإنسان فليحدث له توبة جديدة فإنه على الآن لم يبدل ، وليكثر من الاستغفار طول عمره فوالله ما خلقنا الله إلا لأمر عظيم .

وسمعت سيدي عليًا الخواص (رحمه الله تعالى) يقول : إنما أنسى الله تعالى خواص أوليائه ذنوبهم رحمة بهم لأن العبد كلما تذكر ذنبه فكأنه يجعل بينه وبين الله تعالى صورة قبيحة تؤذن بالعبد ، ولهذا قالوا : ذكر الجفاء في وقت الصفاء جفاء ا.هـ

وسمعت أخي أفضل الدين (رحمه الله تعالى) يقول : لما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] كان ذكر الذنب عليه أشد من الذنب لصفاء الحضرة التي كان فيها على أن تلك الذنوب لا يتعقلها مثلنا كما مر لأنها ذنوب بالنظر إلى مقامه الشريف من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين كما بلغنا أن شخصًا من العارفين مرَّ على جدار فانتحب عنده بالبكاء ، فقيل له : ما سبب هذا البكاء ؟ فقال : وقع لي أنني تيممت من تراب بغير إذن صاحبه وهذا الذنب لا يكاد يبكي عليه أحد ولو من صالحي زماننا فضلاً عن غيرهم .

وقال الشيخ محيي الدين في الباب السابع ومائتين من (الفتوحات) : من حين نزل قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] وتألم النبي ﷺ من ذكر الذنب فما نزل عليه جبريل قط إلا في صورة دحية وكان قبل نزول هذه الآية ينزل عليه في أي صورة شاء ، وكان دحية أجمل أهل زمانه ،

فكأن الحق تعالى يقول لمحمد ﷺ بلسان الحال ما بيني وبينك إلا صورة الجمال والحسن لأنك أعظم حبيب .

وفي آداب الملوك : : إنه ينبغي للوزراء أن لا يكون في أحد منهم عاهة من برصٍ أو جذامٍ أو تشويهِ خلقةٍ وأن لا يحضر بين يديهم قط أحد في بدنه عاهة بل يقضون حاجته من غير أن يوقفوه بين يدي السلطان فافهم .

وكان : من كمال دحية أنه ما رأته حامل دخل المدينة إلا ألقت ما في بطنها لما أدركها في نفسها من شهود ذلك الجمال وإنما لم تلق الحوامل ما في بطنها عند رؤية رسول الله ﷺ مع أنه أجمل من دحية بما لا يتقارب لأنه مشرع والناس مأمورون برؤيته فستر الله تعالى جماله عن غالب الناس رحمة بهم بخلاف دحية لم يؤمر أحد برؤيته .

فإن قلت : ما صورة تبديل السيئات بالحسنات ؛ هل تصير نفس المعصية التي وقعت حسنة في صحيفة العبد أم يصير العبد يطيع الله تعالى بعد أن كان يعصيه ؟

فالجواب : كما قاله بعض أهل الكشف : إن صورة التبديل أن يبدل اسم السيئة في الصحيفة ، ويكتب مكانها حسنة تشاكلها فإن كانت المعصية كبيرة كتب مكانها حسنة كبيرة أو كانت صغيرة كتب موضعها حسنة صغيرة ، وهذا الأمر أعظم عنايات الله تعالى بالعبد إن صح لأنه يعطى النفس حظها في الشهوات الدنيوية ، ثم يكتب الله تعالى له في صحيفته أعمالاً صالحة لم يعمل عينها فعلم أن الله تعالى إذا بدل سيئات العارف حسنات رأى ذلك من أكبر النعم عليه .

فإن قيل : فهل يصح أن يعصي أحد من الخواص ربه على الكشف والشهود إذا رأى في اللوح المحفوظ ما قدره الله عليه ؟

فالجواب : لا يصح ذلك لعارف أبدًا لأن المخصوص بما كشف بقلبه في حضرة الإحسان على الدوام ولو قدر أنه عصى الله تعالى على الكشف لا يشهد الحق تعالى إلا غير راض عنه في ذلك الفعل .

فإن قيل : قد تقدم قول أبي يزيد حين سئل أيعصى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فجوز وقوع العارف في سائر المعاصي .

فالجواب : وهو كذلك فجائز في حق الولي أن يكفر بعد إيمان فضلاً عن المعاصي الإسلامية كما وقع لإبليس ؛ فإنه عصى بعد معرفته بالله ﷻ وإنما جوز أبو يزيد ذلك وعدمه أدبًا مع الله تعالى أن يحكم عليه بشيء معين كما مرَّ أوائل المبحث أي إن كان الله تعالى قدر على العارف المعصية فلا بد من وقوعه فيها لكن مع الحجاب بتأويل أو تزيين أو غفلة أو سهو ، كما أشار إليه حديث « **إذا أراد الله تعالى إنفاذ قضائه وقدره سلب ذوي العقول عقولهم** » . . . الحديث ، يعنى العقول الذاكرة أنها بين يدى الله ﷻ حال عصيانها لا عقول التكليف فإياك والغلط ، والله تعالى أعلم .

فإن قلت : قد قال الحق (جَلَّ وَعَلَا) : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] وآدم عليه السلام من عبيد الاختصاص بيقين ، فكيف كان إبليس واسطة في أكل آدم عليه السلام من الشجرة .

فالجواب : إن إبليس لم يأتِ آدم عليه السلام من باب المعصية ، وإنما دلّاه بغرور

من ذلك حلفه لآدم عليه السلام بالله تعالى أنه له من الناصحين ، ومنها : أنه قال له : إنما نهاك الله تعالى عن قرب الشجرة لا عن أكل ثمرها ، ومنها : ما هو مشهور في الأجوبة عن آدم عليه السلام فما أتاه من صورة ما نهى عنه وإنما أتاه من صورة ما لم ينهه عنه الذي هو الأكل .

وإيضاح ذلك أن إبليس إذا أراد إغواء عبد ورأى وجه العصمة أو الحفظ محيطاً به تجسد له في صورة إنسان مثله ، فيتخيل ذلك الولي مثلاً أنه إنسان لا شيطان ، ويأتيه بالإغواء من قبل إذنه فيدخل عليه فيما حجر عليه تأويلاً أدناه أن يقول له : إن الله غفور رحيم ، وهل رحمته إلا للمذنبين ، وقال نبيكم : « **شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي** » فإذا صغى إليه يقول له : افعل فإن مثلك لا يضره الذنب إلا إذا كان دليله لا يحتمل التأويل ، وقد احتمل دليل هذه المعصية التأويل ، وذلك أن إبليس يعلم أن الإنسان العاقل لا يقدم على معصية الله ابتداءً دون وسوسته بالتأويل والتزيين ، فإذا أعطاه إبليس هذا الأصل صار العبد من أهل الاجتهاد في وقوعه في الذنب أو تركه فإن أخطأ فله أجر فلم يتم للشيطان مراده من ذلك العبد المحفوظ ما دام العبد ذاكرًا قول إبليس فإن نسي ما قاله إبليس وقع ضرورة كما وقع لآدم عليه السلام .

قال الشيخ محيي الدين : وإنما أكل آدم وحوَّاء من الشجرة لأن قلوب الأصفياء صافية لا تعتقد أن أحدًا يكذب عليهم ، ولكن من عناية الله تعالى لآدم أن تلك الأكلة أعقبته الخلد في جنته وملكا لا يبلى على رغم أنف إبليس لكن من غير ما قصده هو لآدم ، إنما كان قصده له أن يقع في الذنب ولا يتوب منه فتاب الله تعالى على آدم ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

فإن قلت : فهل يمكن أن يكون إبليس قصد بقوله لآدم عليه السلام هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى الخير الذي آل أمر آدم عليه السلام إليه ؛ فإن إبليس لم يعين وقتًا ؟

فالجواب : لا يصح من إبليس قصد ذلك أبدًا لأنه ليس له خيرًا إلى آدم وذريته البتة ، وإنما الله تعالى يرد وسوسته خائبة بحسن العاقبة لوليه مثلاً فيجتبيه ويصطفيه ضد ما قصد إبليس ، وكان الشيخ أبو العباس العريني شيخ الشيخ محيي الدين يقول : لم يعص آدم ربه معاذ الله ، وإنما عصى مَن كان في ظهره من ذريته الذين هم أهل الشقاء لأن ظهره كان كالسفينة لسائر أولاده .

وكان الشيخ أبو مدين التلمساني يقول : لو كنت مكان آدم لأكلت الشجرة كلها ، وفي رواية أخرى : لو علم آدم حين أكله من الشجرة ما يؤول أمره إليه من الخير لأكل الشجرة كلها ا.هـ

وقد بسط الشيخ الكلام على حديث « **فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته** » في الباب الخامس وثلثمائة فراجعه ترى العجب في غرائب تلك العلوم ، وقد سنح لي أن أضرب لك مثلاً تعلم به يقينًا تنزيه آدم عليه السلام من المعصية المحضة كما يقع فيها غيره ، وتقوم ببعض واجب حق أبيك (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) فأقول وبالله التوفيق : اعلم أن الله تبارك وتعالى لما قضى في سابق علمه بالسعادة لقوم ولم يبدّل ذلك القول لديه فلابد من فاتح يفتح القبضتين فكان إبليس فاتحًا لقبضة الشقاوة وآدم عليه السلام فاتحًا لقبضة السعادة فإبليس شقي وآدم عليه السلام سعد هو وذريته الذين اقتفوا آثاره في التوبة والاعتراف فإن آدم مع علمه بأن ما

وقع فيه كان بقضاء وقدر اعترف بذنبه ، وقال : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف : ٢٣] وأضاف الذنب إلى نفسه ليعلم بنيه كيف يخرجون إذا وقعوا في معصية عن الإثم ولا يصرون على المعاصي من غير توبة ولا اعتراف كما وقع فيها إبليس وجنوده من الإنس والجن فكان حكم آدم عليه السلام فيما وقع له مع الحق (جل وعلا) حكم عبد قال الحق تعالى له فيما بينه وبينه : إني أريد أن أظهر في هذا الوجود ما كان مكنونًا في علمي وبحكم أسمائي في أهل حضراتها من السعداء والأشقياء وتظهر حجتي على عبادى قبل أن أخرجهم من جواري فإن علمي سبق بذلك وأنا كريم ، ومن شأن الكريم أن لا يخرج أحدًا من جواره إلا بحجة ظاهرة تقام عليه بين المحجوبين عن سماع ما قلته لك من سري ، فإذا قلت لك : لا تقرب هذه الشجرة ، فاعلم أني أذنت لك بالقرب منها فاقرب لأقيم عليك الحجة وأخرجك إلى دار خلافتك وترقيك بالأعمال ؛ فإن هذه الدار التي أنت فيها لا تكليف فيها ولا ترقي لأحد بأعماله كما هي أعمال أهل الجنة التي يؤول أمر المؤمنين إليها بعد يوم القيامة سواء فلا يسع العبد صاحب هذا السر إلا أن يبادر إلى ما أذن له فيه سيده سرًّا من وراء المحجوبين ولم يكن ذلك معصية إلا عند المحجوبين عن سماع ذلك السر الذي أسرَّه الله لآدم عليه السلام ، وأما الحاضرون السامعون ذلك فليس ذلك بمعصية عندهم فإن الإذن من الحق في فعل شيء والأمر به واحد في تلك الحضرة كما صرح به الشيخ في الباب الثالث والسبعين في الجواب الثامن والثلاثين من أسئلة الحكيم الترمذي ، وإنما فرق بينهما في لسان ظاهر الشرع فقط ؛ فإن الأمر غير الإرادة في أحكام الشريعة ، إذ الأمر بخلاف الإرادة اكتفى الحق تعالى فيها بإلجاء العبد في

الباطن إلى وقوع ذلك الفعل من غير أن يأمره بذلك ؛ إن الله لا يأمر بالفحشاء فافهم .

وكان الشيخ أبو مدين يقول : قول بعض العارفين ما فعلت الشيء الفلاني إلا بإذن من الله تعالى مراده بالإذن هنا الإرادة الأزلية ا.هـ فعلم أن في نداء الحق تعالى على آدم بالمعصية والغواية نفعًا عظيمًا لذريته المحجوبين الذين يتعدون حدود الله فيتأسون بأبيهم في الندم والاستغفار والاعتراف ، فلم تكن تلك المعصية مقصودة لآدم بالأصالة كما هي ذنوب الغاوين من ذريته ، وإنما بكى آدم عليه السلام مع إذن الحق تعالى في أكله من الشجرة سرًّا على ما مر في كلام أبي مدين تشريعًا لذريته ، فكان بكاؤه صوريًّا .

فإن قلت : فلمَ لم يفتح آدم عليه السلام قبضة السعادة بالطاعة الصرف دون وقوعه في المعصية ثم توبته منها ؟

فالجواب : إنما كان الأمر بعد وقوع المعصية ليظهر آدم بذلك سعة فضل الله ورحمته وحلمه على عباده الذين سبق في علمه أنهم يقعون في معاصيه تعالى ولو أنه فتح قبضة السعادة بالطاعة المحضة لتعطلت حضرات كثير من الأسماء الإلهية المتعلقة بالعالم المخالف إذ الطائع لا يحتاج إلى مغفرة ولا رحمة ولا حلم لعدم من يغفر له أو يرحم أو يحلم عليه ، ويؤيد ذلك حديث : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم** » فاعلم ذلك .

وأما الجواب عن نوح عليه السلام : في قوله : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ ﴾ [نوح : ٢٦] فإنما دعا عليهم بذلك رحمة بهم خوف أن يشتد

عليهم غضب الله تعالى أكثر مما كانوا فيه ، وقد أمرنا نبينا محمد ﷺ أن يقول أحدنا : إذا خاف من وقوعه في فتنة اللهم توفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي فلم يكن دعاؤه على قومه من غضب نفسي حاشا الأنبياء من ذلك .

وقال الشيخ محيي الدين : ليست دعوة نوح التي يعتذر بها يوم القيامة قوله ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [نوح : ٢٦] إنما هي قوله ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح : ٢٧] لكونه تحكم على الله فيما لا يعرفه ولم يزل الحق يربي أنبياءه بأدب بعد أدب قال ﷺ : « لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القلم : ٤٨] أدبني ربي فأحسن تأديبي ا.هـ

وأما الجواب عن السيد أيوب عليه السلام : في جمعه الذهب في ثوبه لما أمطر الله تعالى عليه رجلاً من جراد من ذهب ، وقال له ربه : ألم أكن أغنيتك عن هذا ، فقال : بلى يارب ، ولكن لا غنى لى عن خيرك وبركتك ؟

فالجواب : أن أكابر الأولياء فضلاً عن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا ينقص كمالهم أخذ الدنيا وإمساكها ، فإن كان أيوب عليه السلام جمع الذهب لما هو عليه من ظاهر الحال فهو صحيح مع أنه قانع بلا شك لأن القناعة عند أهل الله تعالى ليست هي الاكتفاء بالموجود من غير طلب مزيد ، وإن كان فعل ذلك ليقتدي به قومه فما فعل إلا ما هو أولى بالقربة إلى الله تعالى من تركه لاسيما وأيوب عليه السلام ممن هدى الله تعالى وممن أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهداهم وقال تعالى : لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة فقد رجعت القناعة بهذا التقرير إلى بابها في لسان العرب وهي المسألة فإن القانع هو السائل لكن من الله لا

من غيره قال تعالى في الظالمين يوم القيامة : مقنعي رؤوسهم ، أي رافعين رؤوسهم إلى الله تعالى يسألونه العفو والمغفرة عن جرائمهم ، فعلم أن من سأل غير ربه فهو ظالم إلا أن يرى أن ذلك الغير باب من أبواب الله تعالى من غير وقوف معه ، فإن لم يكن كذلك خيف عليه الحرمان والخسران ، ولا يخفى أن السائل موصوف بالركون إلى من سأله والله تعالى يقول : ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ، ومن ركن إلى نفسه أو إلى جنسه فقد ركن إلى ظالم لقوله تعالى : إنه أي الإنسان كان ظلومًا جهولاً وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والتسعين : اعلم أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) وكل الأولياء ما أمسكوا الدنيا إلا باطلاعٍ عرفاني أنتج لهم ما عشقهم في الإمساك من نفع نفس بالأقوات التي قدر الله تعالى وصولها لأصحابها في أوقات مخصوصة فما أمسكوا الدنيا عن بخل ولا ضعف يقينٍ حاشاهم من ذلك .

قال : وانظر إلى أيوب عليه السلام كيف أعطته المعرفة المذكورة أنه صار يحثو في ثوبه من الذهب لما أمطر عليه ، وهو يقول لا غنى لى عن بركتك ا.هـ

وأما الجواب عن يونس عليه السلام : فيما حكاه الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] أن يونس عليه السلام ظن أن الله تعالى لا يضيق عليه لما عهده من سعة رحمته من باب قوله تعالى ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ ﴾ [الطلاق : ٧] أي ضيق عليه ، وإنما آخذه الله تعالى لكونه قصد ذلك الاتساع الإلهي على نفسه فقط ، ولم ينظر ذلك في حق غيره من أمته فلما ظن أن رحمة الله تعالى لا تنالهم أثر غضبه ظلمة في ظاهره لعلو منصبه وصفاء قلبه فأسكن في ظلمة بطن الحوت ما شاء الله تعالى لينبهه الله تعالى على حالته حين كان جنينًا في بطن أمه ، مَنْ كان يدبره فيه ؟ وهل كان في ذلك

الموطن يتصوّر منه أن يغضب أو يغاضب بل كان في كنف الله ﷻ لا يعرف سوى ربه فرده تعالى إلى هذه الحالة في بطن الحوت تعليمًا له بالفعل لا بالقول ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، أي سبحانك يا رب تفعل ما تريد وتبسط رحمتك على من تشاء ، وهذا كالاعتذار عن أمته ، وقوله كنت من الظالمين ، أي أثر غضبي رجع عليَّ ما أنت ظلمتني لأن علمك ما تعلق بي إلا على هذا الحال ثم لما زالت ظلمة المغاضبة ظلمة تليق بمقام الأنبياء وانتشر النور اللائق بكمال النبوة في قلبه استجاب له ربه ، فنجاه من الغم فقذفه الحوت من بطنه مولودًا على الفطرة السليمة فلم يولد أحد من بني آدم ولادتين سوى يونس (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) فخرج ضعيفاً كالطفل كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الصافات : ١٤٥] ورباه تعالى بالقيطين ، وذلك لأن ورقه ناعم ولا ينزل عليه ذباب إذ الطفل لضعفه لا يستطيع أن يرد الذباب عن نفسه ، فغطاه الله تعالى بهذه الشجرة التي من خاصتها أن لا يقربها ذباب مع نعومة ورقها ، فإنه مثل القطن في النعومة بخلاف ورق الأشجار كلها فإن فيه الخشونة ، ذكره الشيخ في الباب الثالث والثلاثين من (الفتوحات) .

وأما الجواب عن السيد موسى (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : في قوله ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء : ٢١] كيف خاف عليه السلام وهو كامل مع أن الواحد من الأولياء لا يخاف أحد إلا الله تعالى ؟

فالجواب : مقام الخوف أولى من وجوه منها أن الكامل يرى من نفسه الضعف بخلاف صاحب الحال من الأولياء ، ومنها أنه يجب على الكامل الفرار من كل شيء يؤذي بدنه أو يلحقه بالعدم وإن خالف ذلك إثم ، ومنها أن في

الخوف عدم تعطيل الأسباب فكان من كمال موسى فراره ، ويحتمل أن خوفه منهم إنما هو خوف من الله تعالى بالأصالة أن يسلطهم عليه فرجع خوفه منهم إلى خوفه من الله تعالى وذلك محمود ، والله أعلم .

وأما الجواب عن السيد سليمان (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : في قوله تعالى ﴿ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ [ص : ٣٣] فهو أن تعلم يا أخي أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لا توصف بفعل سفه ولا إتلاف مال لكمالهم ، وإنما المراد أنه لما أحب الخير الذي هو المال عن ذكر ربه لا عن حكم الطبع طفق يمسح بيده على أعراف الخيل وسوقها فرحًا وإعجابًا بخير ربه ولعلمه (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) بأن الله تعالى يحب من عباده حب الخير ، وذلك الحب للخير إما أن يراد به حب الله إياه أو حب الخير من حيث وصف الخير بالحب ومعلوم أن الخيِّر لا يحب إلا الأخيار ؛ فإنهم محل وجود عينه ؛ فلذلك قال سليمان (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) ﴿ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي ﴾ [ص : ٣٢] أي أنا في الخير من حيث المحبة كالخير في حبه ، ولهذا لما توارت بالحجاب يعني الصافنات الجياد اشتاق إليها ، فقال : ردوها عليَّ لأنه فقد المحل الذي أوجب له هذه الصفة الملذوذة ؛ فإنها كانت محلاً له قال الشيخ في الباب الرابع والعشرين ومائة من (الفتوحات) : وليس للمفسرين الذين جعلوا التواري للشمس دليل لأن الشمس ليس لها ها هنا ذكر ولا الصلاة التي يزعمون وسياق الآية لا يدل على ما قالوه في ذلك بوجه ظاهر البتة ، وأما استرواحهم فيما فسروه بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ [ص : ٣٤] فالمراد بتلك الفتنة إنما هو الاختبار إذ كان متعلقة الخيل ولابد فيكون اختباره إذ رآها : هل يحبها عن ذكر ربه لها أو يحبها لعينها فأخبر عَلَيهِ السَّلام

أنه أحبها عن ذكر ربه إيَاها لا لحسنها وكمالها وحاجته إليها ؛ فإنها جزء من الملك الذي طلب أن لا يكون لأحد من بعده فأجابه الحق تعالى إلى ما سأل في المجموع ورفع الحرج عنه ، وقال له : ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ [ص : ٣٩ - ٤٠] أي ما ينقصه هذا الملك شيئًا من ملك الآخرة كما يقع لغيره من المتنعمين في الدنيا ، فإن كل شيء تنعموا به في الدنيا نقص من نعيمهم في الآخرة ، كما ورد قال : ومن هنا يعلم أن الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) لم يكن شيء يشغلهم عن الله تعالى من نعيم الآخرة فضلاً عن الدنيا ، ولذلك سألوا التوسع في الدنيا ، ومحال أن يسألوا من ربهم ما يحجبهم عنه ، أو يجيبهم الحق تعالى إلى ما يحجبهم عنه إكرامًا لهم ، وقد ذكر الشيخ في باب الوصايا من (الفتوحات) : أن الأكابر ما سألوا الله تعالى التوسع في الدنيا إلا لغرض صحيح ، وذلك لأنهم لما أحكموا الزهد في الدنيا والقناعة منها بالقليل أمنوا على نفوسهم من أن يشتغلوا عند الله بشيء ، فسألوا الله التوسع في الدنيا ليوسعوا بها على أنفسهم وعلى من يلوذ بهم إعطاء لنفوسهم ومعارفهم حقهم وليتلذذوا بخطاب الله ﷻ لهم بقوله : ﴿ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ ﴾ [المزمل : ٢٠] فإنه تعالى ما خاطب بذلك إلا أهل الجدة والسعة فلأجل لذة توجه خطاب الحق تعالى لهم في ذلك سارعوا إلى تحصيل مرتبة الغنى بالتجارات والمكاسب الشرعية لعلمهم بأن من لا مال له محروم من لذة هذا الخطاب فقد بان لك أن سليمان عليه السلام لم يقدح في كماله سؤاله الدنيا أن تكون له بأسرها لفقد العلة التي كرهت الدنيا من أجلها .

وقد بلغنا أن نملة طلبت من سليمان الأمان فأعطاها ، فقالت : ما ملكك

الذي أعطاكه الحق تعالى بسؤالك ؟ فقال : خاتمي ، فقالت : أف لملك يحويه خاتم ، ثم قالت له : ياسليمان ، إذا كانت الأمور التي يعطيها الحق تعالى لعباده لا تخرج عن ملكه تعالى ، فما فائدة طلبك أن يعطيك ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدك ا.هـ .

قلت : وما ذكره الشيخ في هذه الآية تفسير غريب واضح ، وعليه فلا يصح استدلال الشبلي به على تحريق ثيابه بالنار حين شغلته عن ربه ﷻ وقال : إن سليمان عليه السلام قطع سوق الخيل وأعناقها لما شغلته عن الصلاة .

وأما قول بعض العلماء أن الضمير في (توارت) للشمس فلا يناسب قوله (ردوها عليَّ) إذ الشمس ليس ردها في يد قومه حتى يردوها عليه ، ومع ذلك فإن صحَّ دليل في رد الشمس على سليمان بإظهار الضمير الذي في (توارت) وردها للشمس دون الخيل اتبعناه ، والله أعلم .

وسمعت سيدي عليًا الخواص رحمه الله يقول : ثم مقام يقتضي طلب العبد أن يوسع الله عليه الدنيا ليزداد بذلك فقرًا إلى الله تعالى ، وإلى نعمه ، وكيف يعاب على من سأل ربه ما هو أقل من جناح بعوضة ا.هـ

وأما الجواب عن خطيئة داود (عَلَيهِ الصَّلاةَ وَالسَّلام) التي استغفر منها ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾ فكانت نظرة فجأة بغير تقدم نية صالحة ، ولذلك قال ﷺ : « كانت خطيئة أخي داود النظر » وذلك أنه رفع رأسه من الأرض بغير نية تناسب مقامه ، فآخذه الله بذلك ، ولذلك ورد أنه لم يرفع بصره إلى ناحية السماء بعد ذلك إلى أن مات حياء من ذلك الرفع السابق مع الغفلة ، فعين الذنب هو رفع البصر ولو إلى مباح بغير نية فافهم .

فعلم أن مؤاخذة الأكابر في الحركات والسكنات مع الغفلة لا تختص بالنظر ولا غيره ، فلو قدر أنه حرّك أصابعه مع الغفلة عن شهود الحق بذلك لآخذه الله به لوجوب الحضور عليهم مع الله تعالى على الدوام .

وأما ما ذكروه من أن خطيئة داود كانت هي النظر إلى امرأة أوربا فلم يصح لنا ذلك في حديث ، والله أعلم ، وقد بسط ذلك في مبحث الجواب عن آدم (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) فراجعه .

وأما الجواب عن السيد يوسف (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) **في قوله تعالى** ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] الآية فقد ذكر الشيخ في الباب السابع والستين وثلاثمائة من (**الفتوحات**) أن روحه اجتمعت بروح يوسف (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) في بعض الإسراآت الروحية ، فقال له : يا نبي الله ، ما معنى الاشتراك في إخبار الله تعالى عنك بقوله ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [يوسف : ٢٤] فإنه تعالى لم يعين في ماذا ؟ ولا يخفى أن اللسان يدل على أحدية المعنى فقال يوسف (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : نعم ، ولذلك قلت للملك على لسان رسوله أن يسأل النسوة فما ذكرت المرأة إلا أنها راودتني عن نفسي ، وما ذكرت أني راودتها ، فافهم ما قلته لك ؛ فإن به يزول ما كان يتوهمه بعض الناس لما لم يعين الله تعالى أمر همي وهمها ، فقلت له : يا نبي الله ، اللسان يؤذن بالاشتراك ، فقال : نعم صدقت لكن في اللفظ دون المعنى ، فإنها همت بي لتقهرني على ما كانت أرادت مني ، وهممت أنا بها لأقهرها بالدفع عن ذلك فالاشتراك في طلب القهر مني ومنها فكأنه تعالى يقول : ولقد همت به يعني في عين ما هم بها ، وليس إلا القهر فيما يزيد كل واحد من صاحبه ، دليل ذلك قول المرأة : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن

نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف : ٥١] ، وما جاء في قصتي قط أنني راودتها عن نفسها فأراني الله تعالى البرهان غير إرادتي القهر في دفعها عني أولاً بالقول اللين كما قال تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : ٤٤] أي لا تعسف عليها يا يوسف وسسها ؛ فإنها امرأة موصوفة بالضعف على كل حال .

قال الشيخ محيي الدين : فقلت له : أفدتني أفادك الله تعالى ، فاعلم ذلك .

وأما الجواب عن أبينا إبراهيم الخليل (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) فذكر الشيخ في الباب السابع والستين وثلاثمائة أن روحه اجتمعت بروح الخليل (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) قال : فقلت له : ياأبت ، لم قلت ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة : ٢٦٠] مع أنك من المؤمنين بذلك بلا شك ، فقال : صحيح ، ولكن للإحياء وجوه كثيرة كما كان إيجاد الخلق ؛ فمنهم من أوجده الله تعالى عن كلمة كن ، ومنهم من أوجده بيديه ، ومنهم من أوجده ابتداء ، ومنهم من أوجده عن خلق آخر ، فطلبت العلم بتعيين وجه من هذه الوجوه ، فإذا أعلمني به اطمأن قلبى .

قلت : وقد بسط الشيخ الكلام على ذلك في الباب الخامس والعشرين ومائتين ، والله أعلم .

ولنرجع : إلى المعنى الذي نحن فيه قال الشيخ : فقلت له ياأبت ، لم قلت : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] قال : لأنهم كانوا قائلين بكبرياء الحق تعالى على آلهتهم التي اتخذوها ، فقلت له : فماذا أردت بإشارتك بقولك هذا ، قال لى : أنت تعلم المراد بها ، فقلت : إني أعلم إنها إشارة ابتداء وخبره محذوف يدل عليه قولك : بل فعله كبيرهم فاسألوهم إقامةً للحجة عليهم ، فقال

(عَلَيهِ الصَّلاةِ وَالسَّلام) : « **ما زدت على ما كان الأمر عليه** » فقلت له : فما كانت خطيئتك في قولك : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٢] ، فقال : هي نسبة المرض إلى نفسي في قولي : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٠] مع أنه في الحقيقة لم يمرضني إلا الله تعالى فهذا كان خطيئتي فكان في إضافة المرض إلى نفسي ثم طلبي المغفرة من تلك الإضافة أدبان ، فقلت له : فلم قال تعالى في حقك : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة : ١٣٠] فخص صلاحك بالآخرة ، وأطلق الصلاح لغيرك من الأنبياء في الدنيا والآخرة ، فقال : لأن الصالح من شرطه أن لا يضيف إلى نفسه شيئًا إلا بإضافة الله تعالى ، وقد أضفت إلى نفسي وغيرها ما ليس لها بغير إذن خاص من الله تعالى بقولي : (وإذا مرضت) وقولي (إني سقيم) وقولي (بل فعله كبيرهم هذا) .

فقلت له : يا أبت فما قولك في الأنوار الثلاثة ؛ فإنك معصوم عن اعتقادك فيها الألوهية في حين من الأحيان ، فقال : إنما قلت ذلك إقامة للحجة على قومي ، ألا ترى إلى ما قال الحق تعالى في القرآن : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣] وما كان اعتقاد قومي في الإله إلا أنه نمروذ ولم تكن تلك الأنوار آلهتهم ولا كان نمروذ إلهًا لهم ، وإنما كانوا يرجعون في عبادتهم لما نحتوه آلهة لا إليه ، ولذلك لما قلت : (ربي الذي يحيي ويميت) لم يتجرأ نمروذ أن ينسب الإحياء والأمانة إلى آلهتهم التي وضعها لهم لئلا يفتضح ، فقال : (أنا أحيى وأميت) فعدل إلى نفسه تنزيهًا لآلهتهم عندهم حتى لا يتزلزل الحاضرون ، فقلت له : فلم عدلت إلى الأقرب في الحجة ؟ فقال : لأني علمت قصور أفهامهم عما

جئت به لو فصلته وطال المجلس ، فعدلت إلى الأقرب في أفهامهم بذكر إتيان الله تعالى بالشمس من المشرق وطلبت أن يأتي بها من المغرب ، فبهت الذي كفر تعجيزًا له من الله تعالى .

ولنختم الأجوبة بالجواب عن نبينا محمد ﷺ (فنقول) وبالله التوفيق أعلم أن الأجوبة عن نبينا محمد ﷺ من علماء أمته لا تحصى ، ولكن نذكر لك منها طرفًا صالحًا فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الشيخ محيي الدين في الباب الثامن والتسعين وثلاثمائة : إن محمدًا ﷺ لم يزل معصومًا عن كل ما ينقص مقامه الإكمل قبل النبوة وبعدها ، كما روي أنه (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) قبل رسالته كان يرعى الغنم بالبادية فكان يهم أن يدخل إلى مكة فيصيب فيها ما يصيب الشبان من اللعب فإذا دخل مكة لذلك أرسل الله عليه النوم ، فيفوته فعل ما دخل لأجله ، فيستعجل الرجوع إلى غنمه ، فكان في ذلك عصمته ﷺ من حيث لا يشعر وفي المثل السائر : من العصمة أن لا تجد ، ويسمو هذا المقام علم الحاصل في عين الفائت كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] فكان في ذلك الفائت سعادة العبد وفضل على الحاصل ا.هـ ، وقد تقدم أوائل المبحث معنى قوله ﷺ : « **إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله تعالى في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة** » وإن المراد بذلك أنه كان دائم الترقي فكان يستغفر الله ﷻ عن كل مقام ترقى عنه ؛ فإنه ثمَّ مقام رفيع ومقام أرفع ، وفي باب الوصايا للشيخ محيي الدين إذا كان الحق تعالى يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فينبغي للعبد أن لا يتحدث في مناجاته للحق تعالى بما علمه له قبل ذلك ؛ فإنه تضييع للوقت ،

وإنما ينبغي له أن يطلب دائمًا أمرًا جديدًا ا .هـ

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الجواب الخامس والخمسين من الباب الثالث والسبعين من (الفتوحات) أن المراد بهذا الخطاب وجميع العتاب الذي عاتب الله تعالى به نبيه ﷺ غيره من الأمة نحو : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ١] ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ﴿ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٧٤] فكان من فتوته ﷺ أنه تحمل عن أمته صولة الخطاب بالعتاب والتوبيخ ، فالخطاب له والمراد به غيره ، وهذا أحسن الأجوبة ، قال : وأما مغفرته تعالى لبقية النبيين (عليهم الصلاة والسلام) فإنما هي لكون الحق تعالى ستر عنهم في هذه الدار العلم بأن جميع مقاماتهم لرسول الله ﷺ بحكم الأصالة وإنهم نوابه ﷺ كما ينكشف لهم ذلك كله في الدار الآخرة ، وأطال في ذلك .

ثم قال : فعلم من قولنا أن المخاطب بتلك المعاتبات كلها رسول الله ﷺ والمراد بذلك غيره أن الحق تعالى من شأنه أن يؤدب الكبير بالصغير وكما أدب تعالى الأمة بتأديب رسولها لتبليغ باستعمال ذلك الأدب إلى نيل مأمولها فخاطب الرسول ،. والمراد من أرسل إليه بالحث عليه ا .هـ

وقال : في الباب الثامن والتسعين ومائة في قوله تعالى ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ... الآية هو من باب قولهم : إياك أعني واسمعي ياجارة ،

كما يشهد لذلك قرائن الأحوال قال : والحكمة في ذلك مقابلة لإعراض الكفار عن استماع ما جاء به الرسول ﷺ فلذلك أعرض الحق عنهم في الخطاب مقابلة إعراض بإعراض مع كونهم هم المراد بذلك الخطاب فأسمعهم في غيرهم عقوبة لهم واستهانة بأمرهم .

وقال الشيخ : في الباب السابع وأربعين ومائتين : اعلم أنه لا يشترط في استغفار الأكابر أن يكون من ذنب وقع ، وإنما استغفارهم من خوف أن يبدو منهم ما كان ينبغي ستره من الأحوال التي لم يؤمروا بذكرها لقومهم ، ولهذا ما نقل من نبي قط أنه ندم على ما قاله مما أوحى به إليه ولا سمع منه كلام عادي في حال الوحي حتى يفرغ من تنزله عليه فإذا انفصم عنه فحينئذ يخبر بما وقع قال وأما ما كان عن نظر من غير وارد وحي فقد يمكن أن يندم على ما جرى منه ، كما وقع له في أسارى بدر ا .هـ

فإن قلت : فما معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وما الذي أوقع رسول الله ﷺ فيما عاتبه الله عليه من خشية الناس ؟

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب السابع والثلاثين وخمسمائة من **(الفتوحات)** أن سبب وقوعه ﷺ في خشيته من الناس قوله في حق يوسف (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : لو كنت مكانه لأجبت الداعي – يعني داعي الملك لما دعاه إلى الخروج من السجن ، فلم يخرج حتى قال له : ارجع إلى ربك – يعني العزيز الذي حبسه – فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ؟ وذلك ليثبت

عند العزيز براءته ، فلا تصح له المنة على يوسف في إخراجه من السجن بل المنة لله وحده ، فقصد يوسف براءة ساحته إذ لو بقي الاحتمال لقدح في عدالته وهو رسول من الله عز وجل ، فلابد لأمته في طريق انقيادهم له من ثبوت عدالته عندهم فلذلك خشي ﷺ من الناس أن يعيبوا عليه تزويجه بزوجة من تبناه حتى لا يردوا دعوة الحق عليه ، فعلم أن الله تعالى ما ابتلى نبيه ﷺ بتزويجه زوجة من تبناه إلا ليذوق بلاء التهمة ، ويتخلق بالرحمة التامة على كل من اتهم فإن تزوج الرجل زوجة من تبناه مما كان يقدح في كماله ﷺ عند جهال العرب وهو رسول وأي رسول ، ثم إنه تعالى لما أذاقه ألم الحرج في مقامه داواه بإبانته عن العلة في ذلك بقوله ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ورفع الحرج في مثل ذلك عن المؤمنين فأذاق الحق تعالى رسوله ﷺ ما أذاق يوسف حين لم يجب الداعي ، وطلب أن تكون البراءة في غيبته لكونها أكثر تنزيهًا له لأنه لو حضر ربما قيل : ما زكاه إلا في وجهه حياء منه ، ومن كمال الرجل أن يقف مع ما يمسك عليه المروءة العرفية في كل ما لم يؤمر بفعله حتى يأتيه أمر الله فهناك يكون بحسب ما يؤمر به ا.هـ

قلت : ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﷺ لأجبت الداعي الثناء على يوسف بالقوة في عدم خروجه من السجن فأظهر ﷺ ضعف حاله عن حال يوسف كما قال : « نحن أولى بالشك من إبراهيم » فإن يوسف اجتمع عليه حالان حال السجن وحال كونه مفترى عليه ، وكل رسول يطلب أن يقرر في نفوس أمته ما يقبلون به دعاء ربه في كل ما يدعوهم إليه فكأن رسول الله ﷺ قال : « لو كنت مكان يوسف لسارعت إلى الخروج » طلبًا للبراءة بجدالي عن نفسي لتثبت براءتي

عند من أرسلت إليهم ، ويحتمل غير ذلك ، والله أعلم .

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] هل هو توبيخ كما فهمه بعضهم أو سؤال عن العلة مثل قوله تعالى لعيسى (عليهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ﴾ [المائدة: ١١٦] .

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الثامن والخمسين وخمسمائة : إن ذلك سؤال عن العلة لا سؤال توبيخ لأن العفو قد تقدم ذلك ، وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ﴾ [التوبة : ٤٣] إنما هو استفهام مثل قوله تعالى لعيسى ما تقدم كأنه تعالى يقول : أفعلت يا محمد ذلك حتى يتبين لك الذين صدقوا ، فإما أن يقول عند ذلك نعم أو لا ؛ فإن العفو والتوبيخ لا يجتمعان لاسيما مع تقدم العفو في الذكر كما تقدم فإن من وبّخ فما عفا مطلقا ؛ لأن التوبيخ مؤاخذة ، وهو تعالى قد عفا ، قال : ولما كان هذا اللفظ قد يفهم منه في اللسان التوبيخ جاء لأجل ذلك بالعفو ابتداء ليتنبه العارف بالله تعالى وبمواقع كلامه أنه لم يرد التوبيخ الذي يتوهمه من لا علم عنده بالحقائق ا.هـ

وقال في الباب الثامن والثلاثين من (**الفتوحات**) أيضاً في قوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] ذكر أهل التفسير أنه تعالى قدم له البشرى قبل العتاب ليطمئن فؤاده ﷺ قال : والذى عندنا نحن من العلم الإلهي أن هذه الآية بشرى خاصة ليس فيها عتاب إنما هو استفهام لمن أنصف وأعطى كلام الله تعالى حقه في الفهم ا.هـ

فإن قلت : فما المراد بقوله تعالى في حقه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② ﴾ [عبس : ١ – ٢] . . . إلخ النسق هل معناه على ظاهره أم المراد به غير ذلك .

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الرابع وثلاثمائة ليس ذلك العتاب على ظاهره وإنما نبه نبيه ﷺ على ما ذكره ليعلمه أنه تعالى عند المنكسرة قلوبهم أكثر حضورًا من الملوك لأن رحمة الله تعالى لا تفارق الفقراء بخلاف الملوك ، وأيضًا ذلك أن الحق تعالى يغار لعبده المنكسر القلب من أجل ربه أشد مما يضار لمن تظاهر بصفة العظمة فإذا حضر عندك ملك مطاع نافذ الأمر زائرًا ثم إن فقيرًا دخل عليك كذلك زائرًا ، فأقبل على الفقير أكثر من الملك إلا أن تخاف سطوته ولا تعرض عن الفقير حتى يفرغ من حاجته التي جاءك لأجلها ، فعلم أن تجلي الحق تعالى بالحضور عند الملك المطاع تجلٍ في غير موطنه اللائق به إذ الكبرياء والعظمة إنما تليق بأهل الجنة في الجنة لعدم التحجير عليهم وزوال التكليف ، وما عاتب الله تعالى نبيه بقوله ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ① أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ② ﴾ [عبس : ١ – ٢] إلا لكون ذلك الأعمى فقيرًا ، فغار تعالى لمقام العبودية والفقر أن يستهضم لأجل صفة عز أو قهر ظهرت في غير محلها ، وأطال في ذلك .

وأما معنى : قوله تعالى : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ⑤ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ⑥ ﴾ [عبس : ٥ – ٦] فذكر الشيخ في الباب التاسع والأربعين وخمسمائة أن معناه العتاب في حال اجتماع الفقراء مع الأغنياء لا مع الانفراد ، فإن من الأدب الإقبال على كل وارد من غني أو فقير ، (وفي الحديث) « **إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه** » وقال تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ [الممتحنة : ٨] .

وهنا نكتة ينبغي لك أخي أن تعرفها ، وهي أن الملك العزيز في قومه ما جاء إليك ولا نزل عليك حتى ترك جبروته وكبرياءه خلف ظهره قبل أن يأتيك فما أتاك إلا وهو يرى نفسه دونك فكان جبروتك في نفسك إذا لم تقبل عليه وتتواضع له أعظم من جبروته هو ، فعلى كل حال يلزمك مقابلته بنظير فعله معك ، وأنزله أنت منزلته من نفسك قبل أن يأتيك وأدخل عليه السرور بالإقبال والتبسم تكن حكيم الزمان ؛ فإن الله تعالى ما عاتب نبيه ﷺ في حق الأعمى والأغنياء إلا لكون الفريقين كانا حاضرين ، فبالمجموع وقع العتب لا مع الانفراد .

وكان سيدي علي الخوّاص (رحمه الله تعالى) : يقول إنما أقبل ﷺ على الأغنياء لصفة الغنى التي تظاهروا بها والعارف بالله تعالى ينبغي له الإقبال على كل نعت إلهي من جلال وعظمة وغيرهما ، فإن وقع أن أحدًا من العارفين عوتب على إقباله على الأغنياء فليس ذلك من حيث تظاهرهم بالغنى وإنما ذلك لعلة أخرى فعلم أنه لا ينبغي القياس على هذا العتاب وطرده في حق الأغنياء مطلقًا ، فإن ذلك مزلة قدم عن الشريعة ؛ فإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بإكرام كريم كل قوم إذا أتانا كما مرَّ ، فافهم ، واعلم أيضًا أن تعظيم العارف للملوك والأمراء والأغنياء إنما هو من تعظيم الرب (جل وعلا) ، وأما تعظيم الفقراء فإنما ذلك جبرًا لقلوبهم لانكسارها ا.هـ

وقال في تفسير هذه الآية أيضًا في الباب الثالث والستين ومائة : اعلم أن الغنى صفة ذاتية للحق تعالى ؛ فإن الله هو الغني الحميد أي هو الذي يستحق أن

يثنى عليه بهذه الصفة وكان مشهد رسول الله ﷺ حين عاتبه ربه بقوله ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ ﴾ [عبس : ١] إلخ ، إنما هو الصفة الإلهية المذكورة ، وهو الغنى المطلق الذي لا يكون لغير الله قطعًا ، فلهذا تصدى رسول الله ﷺ لأكابر قريش لظهور رائحة هذه الصفة الإلهية فيهم فإنها تعطي بذاتها الشرف والرفعة في ذلك الوقت الذي تصدى لهم فيه فكان قصده ﷺ بإقباله على الأغنياء إنما هو تعليم أمته أن يتصدوا لكل من اتصف بصفة الغنى من الخلق ثم إذا رسخوا في ذلك المقام أمروا بالترقي إلى شهود عدم تخصيص الصفات الإلهية فإن العالم كله من شعائر الله تعالى ومن صفته ولا ينفِ شيء منه عن مصاحبة معية الحق تعالى له عدم تحيزه (جل وعلا) فكل كامل يغار على هضم جناب المنكسرة قلوبهم ؛ لأن الحق عندهم كما أخبرنا به الشارع ﷺ وأيضًا فإنه ﷺ مع هذا المشهد كان له حرص عظيم على إسلام قريش فكان يعلم أن أكابرهم إذا مالوا إليه بقلوبهم أطاعوه وأحبوه وأسلموا فأسلم بإسلامهم خلق كثير ؛ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة : ١٢٨] أي أن عنادكم وعدم إسلامكم يعز عليه لمحبته الخير لكم .

فإن قلت : فكيف أوقع الحق تعالى العتب على رسول الله ﷺ مع هذا المشهد العظيم الذي قدمناه ؟

فالجواب : إنما عاتبه وأعلمنا بذلك تأديبًا لنا ؛ فإن الإنسان محل الغفلات ، وهو فقير بالذات ، ولو صار من أكبر ملوك الدنيا فهو فقير ؛ لأن غناه عرضى عرض له من حصول الجاه والمال فما استغنى إلا بغيره بخلاف الحق (جل وعلا) فليست الصفة التي ظهرت في الأغنياء صفة الحق حقيقة حتى يتصدى العبد لها ،

ولذلك قال تعالى في الآية : ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [عبس : ٥] بسين الطلب ، وما قال : أما من هو غني ، فكان مما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ الإعراض عن الأغنياء والإقبال على الفقراء أولاً ، ثم أمره أن يقبل على كل من ترك غناه وكبرياءه وجاء إليه .

قال الشيخ : وأكثر الناس غافلون عن هذا الأدب الثاني فلا يكادون يشهدون له طمعًا ويتخيلون أن إقبال العارفين على أحد الرؤساء والأغنياء إنما ذلك لأجل جاههم ومالهم ، وليس الأمر كما ظنوا .

ثم اعلم : أن أهل الله تعالى إذا خافوا أن أحدًا من العوام يتبعهم على تعظيم الأغنياء من غير فهم المعنى الذي قصدوه وخافوا أن يزدادوا بذلك الفعل رغبة في الدنيا ، فلهم إظهار الأنفة على الأغنياء والرؤساء تقديمًا لمصلحة المحجوبين ، وتأمل قولهم : شرط الداعي إلى الله ﷻ أن يكون غنيًا عن المدعوين لا يحتاج إليهم في شيء يمنون به عليه ، فعرف أنه ينبغي له استجلاب الناس لا تنفيرهم عنه فيحسن إليهم بالمال والإقبال ولا ينبغي له قبول صدقاتهم وإحسانهم لأنه يهون بذل في أعين المدعوين ، ويجب عليه التعفف عما بأيديهم وكف نفسه عنهم إما بمال أو قناعة ، قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

فأما الحكمة فهو غناه عما بأيدي المدعوين ، وأما الموعظة الحسنة فهو تمهيده بساطًا للمدعوين حتى إنهم يصيرون يبادرون إلى فعل ما ندبهم إليه من غير توقف لما يعلمون لنفوسهم في ذلك من المصلحة وفي القرآن : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وقد استقر الأمر على أن تقديم الفقراء على الأغنياء مطلوب في كل ما فيه إكرام ، وإنه لا ينبغي لفقير أن يراعي أحدًا من الأكابر بعد ما تبين له الحق ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، والسلام .

* * *

خاتمة

لا ينقص من كمال الأنبياء عليهم السلام عدم معرفتهم بتدبير أحوال الدنيا في بعض الأوقات كما أشار إليه قوله ﷺ في مسألة تلقيح النخل « **أنتم أعلم بأمر دنياكم** » وذلك أنه ﷺ مرَّ على قوم وهم على رؤوس النخل ، فقال : « **ما يصنع هؤلاء** » فقالوا : يلقحون النخل ، فقال : « **ما أرى ذلك يجدي شيئًا** » فسمع بذلك الأنصار فتركوا تلقيح نخلهم تلك السنة ، فقل حمل النخل ، وخرج البلح شيصًا ، فأخبروه بذلك ، فقال : « **أنتم أعلم بأمر دنياكم** » يعني في كل ما لم يوحَ إليه فيه شيء .

قال الشيخ محيي الدين : وسبب خفاء بعض أحوال الدنيا على الأنبياء والأولياء إنما هو لما غلب على قلوبهم من عظيم مشاهدة جلال الله تعالى فغابوا بذلك عن تدبيرهم للكون ، ولو أن ذلك الجلال والعظمة انحجب عنهم لكانوا أعرف الناس بأمر الدنيا لكن لا يخفى أن حجابهم عن تدبير الكون إنما هو لهم في بعض الأوقات لا كلها ، كما أشار إليه خبر « **لي وقتٌ مع الله لا يسعني فيه غير ربي** » .

قال بعض العارفين : وما مات رسول الله ﷺ حتى تزايد كماله وصار يدبر أمر الدنيا والآخرة لم يكن يشغله مشاهدة جلال الله عز وجل عن ذلك .

وقد ذكر الجلال السيوطي رحمه الله أنه ﷺ كان مكلفًا بالإقبال على الله عز وجل وعلى الخلق معًا في آنٍ واحدٍ لا يحجبه الخلق عن الحق .

فإن قلت : فلم أمر رسول الله ﷺ بمشاورة أصحابه مع كونهم دونه بيقين.

فالجواب : كما قاله الشيخ في الباب الثامن والتسعين ومائة أن الله تعالى ما أمر نبيه ﷺ بالمشاورة لمن هو دونه إلا ليعلمه تعالى أن له في كل موجود خصوصية لا تكون لغيره فقد يلقى الله تعالى من الوجه الخاص لآحاد الأمة ما لم يلقه إلى أحد من المقربين بدليل قصة الخضر مع موسى (عليهما الصلاة والسلام) والله تعالى أعلم ا.هـ كلام الإمام الشعراني رضي الله عنه وجزاه عنا أفضل الجزاء آمين وبانتهائه انتهى ما يسر الله جمعه في هذه الرسالة في هذا الوقت ، ولا يخفى أن الفقير ابن وقته كما تقول الصوفية رضي الله عنهم

(ولله در قائلهم وأجاد) :

خذ من زمانك ما جاد الزمان به ... فمن جنى بعض ما يهوى فقد سعدا

كن ابن وقتك واحذر أن تضيعه ... فلن يعود زمان فائت أبدًا

ولنختم هذه الرسالة بنبذة يسيرة تتعلق بجانب الملائكة الكرام لكونهم شاركوا الأنبياء والرسل في العصمة ، على الجميع من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام .

فنقول : ومن الله أرجو التوفيق والقبول سبحانه :

اعلم أن الملائكة جمع ملك ، وأصله ملأك حذفت همزته بعد نقل حركتها لكثرة الاستعمال ، وقيل أصله مألك من الألوكة وهي الرسالة فأخرت ثم جمع وقد تحذف الهاء ، فيقال ملائك أفاده الشيخ علي قاري في شرح الشفا .

وفي روح البيان : للشيخ إسماعيل حقي رضي الله عنه في تفسير قول الله تعالى في

سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ... الآية ما نصه : والملائكة جمع ملك ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة وسموا بها ؛ فإنهم وسائط بين الله وبين الناس فهم رسله ؛ لأن أصل ملك ملاك مقلوب مالك من الألوكة وهي الرسالة ا .هـ

وقال **الجمال** : في حاشيته على ذي الجلالين : الملائكة جمع ملاك الذي مخففه ملك ، والراجح أنه من الملك لا من الألوكة بمعنى الرسالة ا .هـ

وقال **في المصباح** : ألك بين القوم ألكًا من باب ضرب وألوكًا أيضًا ترسل ، واسم الرسالة مالك بضم اللام ومالكة أيضًا بالهاء ولامها تضم وتفتح ، والملائكة مشتقة من لفظ الألوك ، وقيل من المالك الواحد ملك ، وأصله ملاك ، ووزنه مفعل ، فنقلت حركة الهمزة إلى اللام ، وسقطت فوزنه معل ؛ فإن الفاء هي الهمزة ، وقد سقطت ، وقيل : مأخوذ من لاك إذا أرسل ، فملاك مفعل فنقلت الحركة وسقطت الهمزة وهي عين فوزنه : مفل وقيل فيه غير ذلك ا .هـ كلام المصباح .هذا بعض ما يتعلق بلفظ الملائكة في اللغة .

وأما في الاصطلاح : فالملائكة أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقة شأنها الطاعات ومسكنها السموات ، هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه (عليهم الصلاة والسلام) وأمناؤه على وحيه ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة لعدم دليل على ذلك ا .هـ أفاده الشيخ عبد السلام اللقاني في شرح جوهرة والده .

قال محشية العلامة الأمير : قوله قادرة على التشكل في المبحث التاسع والثلاثين من اليواقيت عن ابن العربي أنهم لا يتشكلون في صور بعضهم فلا يتشكل جبريل بصورة ميكائيل ولا العكس بخلاف أولياء البشر فيمكنهم ذلك قوله شأنها الطاعات في اليواقيت عن الشيخ الأكبر : طاعات الملائكة محتمة عليهم فلا يفرغون من توظيف حتى يمكنهم التطوع ، قال : فمقام « **لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل** » الحديث من خصوصيات البشر ا.هـ كلام الأمير رحمه الله .

وقال البيضاوي في تفسيره : واختلف العقلاء في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك ، وقالت طائفة من النصارى : هي النفوس الفاضلة البشرية المفارقة للأبدان ، وزعم الحكماء : أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة منقسمة إلى قسمين :

قسم : شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما وصفهم في محكم تنزيله ، فقال : يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وهم العليون والملائكة المقربون .

وقسم : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاء وجرى به القلم الإلهي لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم المدبرات أمرًا ، فمنهم سماوية ، ومنهم أرضية على تفعيل أثبته في كتاب الطوالع ا.هـ

وقال في روح البيان : والملائكة عند أكثر المسلمين أجسام لطيفة قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، والدليل أن الرسل كانوا يرونهم كذلك ، قال :

وروي في شرح كثرتهم أن بني آدم عشر الجن ، وهما عشر حيوانات البر ، والكل عشر الطيور ، والكل عشر حيوانات البحار ، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة سماء الدنيا ، وكل هؤلاء عشر ملائكة السماء الثانية ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ثم كل أولئك في مقابلة الكرسي نزر قليل ، ثم جميع هؤلاء عشر ملائكة سرادق واحد من سرادقات العرش التي عددها ستمائة ألف ، طول كل سرادق وعرضه وسمكه إذا قوبلت به السموات والأرض وما فيهما وما بينهما لا يكون لها عنده قدر محسوس ، وما منه من مقدار شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ثم كل هؤلاء في مقابلة الذين يحومون حول العرش كالقطرة في البحر ، ثم ملائكة اللوح الذين هم أشياع إسرافيل عليه السلام ، والملائكة الذين هم جنود جبريل عليه السلام لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفيات عباداتهم إلا باريهم العليم الخبير على ما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

وروي أنه ﷺ حين عرج به إلى السماء رأى ملائكة في موضع بمنزلة شرف يمشي بعضهم تجاه بعض ، فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام إلى أين يذهبون ؟ فقال جبريل عليه السلام : لا أدري إلا أني أراهم منذ خلقت ولا أرى واحدًا منهم قد رأيته قبل ذلك ثم سألا واحدًا منهم منذ كم خلقت ؟ فقال : لا أدري غير أن الله تعالى يخلق في كل أربعة آلاف سنة كوكبا ، وقد خلق منذ ما خلقني أربعمائة ألف كوكب ، فسبحانه من إلهٍ ما أعظم قدرته وما أوسع ملكوته ، وهل خلقت الملائكة دفعة واحدة ، أو خلقوا تارات.

أجاب عن ذلك شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجر الهيتمي رضي الله عنه في

فتاويه بما نصه ظاهر السنة أن الملائكة لم يخلقوا دفعة واحدة فقد أخرج عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضي الله عنهما قال : قلت يارسول الله ، بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله قبل الأشياء ، قال : « يا جابر ، إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك محمد ﷺ من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا إنس ولا جن فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول القلم ومن الثاني اللوح ومن الثالث العرش ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول حملة العرش ومن الثاني الكرسى ومن الثالث باقي الملائكة ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول السموات ومن الثاني الأرضين ومن الثالث الجنة والنار ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة بالله ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ . . . » الحديث ، (فتأمله) تجده ظاهرًا أو صريحًا في خلق حملة العرش قبل خلق بقية الملائكة .

وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن أبي العالية قال : « أن الله تعالى خلق الملأ الأعلى الملائكة يوم الأربعاء ، وخلق الجن يوم الخميس ، وخلق آدم يوم الجمعة » .

وأخرج أبو الشيخ أنه ﷺ قال : « إن لله تعالى في الجنة فينفض قطرًا فيخلق الله من كل قطرة تقطر منه ملكًا » .

واخرج أيضاً عن وهب بن منبه قال : « إن لله نهرًا في الهواء يسع الأرضين كلها سبع مرات ، فينزل على ذلك النهر ملك من السماء فيملؤه ويسد ما بين أطرافه ، ثم يغتسل منه ، فإذا خرج منه قطر منه قطرات من نور فيخلق الله من كل قطرة منها ملكًا يسبح الله بجميع تسبيح الخلائق كلهم » .

وأخرج **أيضًا** : عن كعب قال : لا تقطر عين ملك منهم إلا كانت ملكًا يطير من خشية الله .

وأخرج **أيضًا** : عن العلاء بن هارون قال لجبريل كل يوم انغماس في الكوثر ثم ينتفض فكل قطرة يخلق منها ملك .

(وأخرج **أيضًا**) أنه ﷺ قال : ليس من خلق الله أكثر من الملائكة ما من شيء ينبت إلا وملك موكل به .

وأخرج **أيضًا** : عن الحاكم قال : بلغني أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من ولد آدم وولد إبليس يحصون كل قطرة وأين تقع ومن يرزق ذلك النبات .

واخرج ابن المنذر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : الملائكة عشرة أجزاء : تسعة أجزاء الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وقد وكلوا بخزانة كل شيء وما من السماء موضع إلا فيه ملك ساجد أو ملك راكع ، وإن الحرم بحيال العرش ، وإن البيت المعمور بحيال الكعبة لو سقط لسقط عليها يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

واخرج أبو الشيخ والبيهقي والخطيب وابن عساكر أنه ﷺ قال : إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ما منهم ملك تقطر من عينه دمعة إلا وقعت

ملكًا قائمًا يسبح وملائكته سجودًا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وملائكة ركوعًا لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، وصفوفًا لم ينصرفوا عن مصافهم ، ولا ينصرفون عنها إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم ربهم ﷻ فينظرون إليه ، وقالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال : هؤلاء الأربعة أملاك جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت أول من خلقهم الله تعالى من الخلق وآخر من يميتهم وأول من يحييهم هؤلاء المدبرات أمرًا والمقسمات أمرًا ، فهذه الأحاديث والآثار كلها ظاهرة أو صريحة في أن الملائكة لم يخلقوا دفعة بل دفعات ا.هـ ما أجاب به ابن حجر رحمه الله .

وقال الشيخ الإمام العالم العلاَّمة الهمام سيدي محمد ابن عبد القادر الخطيب المكي رحمه الله في كفاية المبتدي ما نصه وهم – يعني الملائكة (عليهم الصلاة والسلام) – أجسام لطيفة نورانية جعل الله لهم قوة على التشكل بأشكال مختلفة جميلة ، والقدرة على الأفعال الشاقة شأنهم الطاعات ، ومسكنهم السموات ، غالبًا سفراء بين الله وبين خلقه ، صادقون فيما أخبروا به عنه تعالى ، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة فلا أب لهم ولا أم ، ولا يتناكحون ، ولا يتوالدون ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ويبكون شديدًا خوفا من الله ، عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولا تكتب أعمالهم ، ولا يحاسبون ، ولا توزن أعمالهم ، ولا يحشرون مع الإنس والجن ، ويدخلون الجنة ويتنعمون فيها بما شاء الله تعالى ، ويجوز عليهم الموت ، بالغون في

الكثرة إلى حد لا يعلمه إلا الله تعالى ، فيجب الإيمان بهم إجمالاً إلا من ورد تعيينه باسمه المخصوص بنوعه ، فيجب الإيمان بهم تفصيلاً ، فالأول عشرة جبريل عليه السلام وميكائيل عليه السلام وإسرافيل عليه السلام وعزرائيل عليه السلام ورضوان عليه السلام ومالك عليه السلام ورقيب وعتيد الكاتبان عليهما السلام ومنكر ونكير عليهما السلام الموكلان بسؤال القبر ، وفيها خلاف : هل يجب الإيمان بهما تفصيلاً أو لا ؟

والثاني حملة العرش وهم ملائكة أربعة الآن فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى ، والكروبيون وهم ملائكة حافون بالعرش ، طائفونبه متصدون للدعاء برفع الكرب عن الأمة ، والحفظة وخزنة الجنة وخزنة النار وهم ملائكة تسعة عشر ا.هـ

وقال الإمام الرازي : في تفسيره لدى قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . . . الآية ، ما نصه : واعلم أنه ليس بعد كلام ا لله وكلام رسوله كلام في وصف الملائكة أعلى وأجل من كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام قال في بعض خطبه : ثم فتق ما بين السموات العلى فملأهن أطوارًا من ملائكته ، فمنهم سجود لا يركعون ، وركوع لا ينتصبون ، وصافون لا يزالون ، ومسبحون لا يسأمون ، لا يغشاهم نوم العيون ، ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان ، ولا غفلة النسيان ، ومنهم أمناء على وحيه وألسنة إلى رسله ، ومختلفون بقضائه وأمره ، ومنهم الحفظة لعباده والسدنة لأبواب جناته ، ومنهم الثابتة - في الأرضين السفلى - أقدامهم والمارقة من السماء العليا أعناقهم والخارجة من الأقطار أركانهم والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم ، ناكسة دونه أبصارهم ، متلفعون بأجنحتهم ، مضروبة بينهم وبين من دونهم حجب العزة

وأستار القدرة ، لا يتوهمون ربهم بالتصوير ، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين ، ولا يحدونه بالأماكن ، ولا يشيرون إليه بالنظائر ا .هـ ما نقله الإمام الرازي رحمه الله .

إذا علمت ما تقدم من معنى الملائكة – لغةً واصطلاحًا – فاعلم أنه يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد أن الله (تبارك وتعالى) عصمهم (عليهم الصلاة والسلام) من صدور المعصية والمخالفة منهم – كبيرة كانت أو صغيرة – لقول الإمام الحقى رضي الله عنه : كذا الملائكة معصومون ، وهم عباد الله طائعون ، وقول اللقاني في جوهرته وعصمة الباري – أي الخالق – لكلٍّ – أي لكل واحد من الأنبياء والملائكة دون غيرهم من الآحاد – حتمًا في الاعتقاد على كل مكلف من كل ما ينقص مقامهم من حركة أو سكون أو قول أو فعل ا .هـ

وقال المحقق الأمير : واعلم أن المشهور عصمة الملائكة مطلقًا وهاروت وماروت ، قيل رجلين سميا ملكين تشبيهًا أو أنهما أرسلا فتنة ، ولم يصح فيهما عصيانٍ وعذاب ، وقولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) ليس غيبة لمعين ولا اعتراضًا بل مجرد استفهام ، ووقع في كلام ابن عربي على ما في اليواقيت عدم عصمة ملائكة الأرض وسماء الدنيا ، وحاصل كلام السعد أنه لا قاطع في المسألة ا .هـ

وفي الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي رضي الله عنه : أجمع المسلمون أنهم – أي الملائكة – مؤمنون فضلاء ، واتفق أئمة المسلمين أن الرسل منهم إلى الأنبياء معصومون كالأنبياء ، والأصح – بل الصواب – عصمة بقيتهم ، وأما ما وقع لهاروت وماروت كما صح عنه ﷺ في شأنهما أنهما كانا من الملائكة ، وأنهما افتتنا بالزهرة ، وكانت أجمل نساء زمنها حتى زنيا بها وشربا الخمر وقتلا

فمسخت كوكبًا لأنهما علماها الاسم الأعظم الذي كانا يرقيان به إلى السماء ، فرقيت إليها ، فمسخت هذا الكوكب المضيء المعروف ، فذلك أمر خارق للعادة أوجده الله تعالى تأديبًا للملائكة في قولهم ، كما صح في الحديث أيضًا عند خلق آدم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٣٠] . . . الآية .

فبين لهم تعالى أنه لو ركب في الإنسان لأفسدوا أيضًا فتعجبوا فأمرهم أن يختاروا ثلاثة منهم ففعلوا فاستقال واحد فأقيل ، ونزل هاروت وماروت فوقع لهما ما وقع تأديبًا لبقية الملائكة ، وزجرًا لهم عن أن يخوضوا فيما لا علم لهم به ، وهذا الذي ذكرته من الجواب عن هذه القصة من أنها خارق للعادة ، وبهذه الحكمة التي ذكرتها يتبين الرد على من أطال في إنكار قصتهما حتى بالغ بعضهم وقال : إن من اعتقد ذلك فيهما كفر وليس كما زعم لما علمت من صحة الأحاديث بها ، وإن ذلك الوقوع لتلك الحكمة لا يخل بعصمة الملائكة من حيث هي ، ولا ينافيه شيء من الأدلة ولا من القواعد ، فاحفظ ما قررته وتأمله فإن الكلام قد كثر في هذا المحل وتعارضت فيه الآراء والظنون ، وما ذكرته فيه هو الأوفق بالسنة وغير منافٍ للقواعد وإن لم أر من سبقني إليه ، وقيل : لم يكونا ملكين بل هما جنيان وإن كانا بين الملائكة ، فإن صح هذا لم يحتج الجواب عن قصتهما ، كما أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان بينهم وهو من الجن ا.هـ كلام ابن حجر رحمه الله .

(وقال الصاوي) (رحمه الله تعالى) في حاشيته على ذي الجلالين عند قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ما نصه : وقصة

هاروت وماروت على القول بثبوتها : أن الملائكة لما رأوا أعمال بني آدم الخبيثة تصعد إلى السماء قالوا : سبحانك يا ربنا خلقت خلقاً وأكرمتهم وهم يعصون ، فقال الله تعالى لهم : لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم فعلهم ، فقالوا : سبحانك لا نعصيك أبدًا ، فقال : اختاروا لكم ملكين ، فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلحهم ، فركب الله فيهما الشهوة وأمرهما بالهبوط إلى الأرض والحكم بين الناس بالحق ، ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا وشرب الخمر وعلمهما الله الاسم الأعظم ، فكان إذا أمسى الوقت صعدا به على السماء ، ثم إنه جاءت إليهما امرأة تسمى الزهرة ، وكانت جميلة جدًّا ، فلما وقع نظرهما عليها أخذت بقلوبهما ، فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أن يحكما لها على زوجها ، ففعلا فراوداها ، فأبت إلا أن يقتلاه ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يشربا الخمر ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يسجدا للصنم ففعلا ، ثم راوداها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الذي يصعدان به إلى السماء ففعلا ، فتلته فصعدت به إلى السماء ، فمسخها الله كوبًا فهي الزهرة المعروفة ، فلما علما ذلك أرادا تلاوة الاسم الأعظم فلم تطاوعهما أجنحتهما ، فذهبا إلى إدريس وسألاه أن يشفع لهما عند الله ، ففعلا ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا لعلمهما بانقطاعه ، فهما ببابل معلقان بشعورهما يضربان بسياط من حديد إلى يوم القيامة مزرقة أعينهما مسودة جلودهما ، وما زالا يعلمان الناس السحر .

وقد اختلف في صحة هذه القصة وعدمها فاختار ابن حجر الأول لورودها من عدة طرق عن الامام أحمد بن حنبل ، واختار البيضاوي ومن تبعه الثاني لأنه لم يثبت روايتهما إلا عن اليهود ا.هـ كلام الصاوي رحمه الله .

وقال الإمام الرازي – رحمه الله تعالى ورضي عنه – في تفسيره : (مسألة) الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ، ومن الحشوية من خالف في ذلك لنا وجوه :

الأول : قوله تعالى ﴿ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم : ٦] إلا أن هذه الآية مختصة بملائكة النار ؛ فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا بقوله تعالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾ [النحل : ٥٠] فقوله ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠ ﴾ يفيد العموم قلنا : لأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه ، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل على مابيناه في أصول الفقه .

والثاني : قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٧] فهذا صريح في براءتهم عن المعاصي وكونهم متوقفين في كل الأمور إلا بمقتضى الأمر والوحى .

والثالث : أنه تعالى حكى عنهم أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن .

الرابع : أنه تعالى حكى عنهم أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه ا .هـ كلام الرازي – رحمه الله ورضي عنه – وفيما ذكر في هذه الخاتمة كفاية للذاكر ، وغيره لا ينفعه كلام الأوائل والأواخر .

ولنختتم هذه الخاتمة بفائدة تقدم الوعد بالإشارة إليها وهي أن الصحيح

والمعتمد في المعتقد أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة - على الجميع أفضل الصلاة وأزكى السلام - فنقول ومن الله أرجو القبول :

(فائدة) اعلم - بصرك الله الحق عياناً - أنه يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد أن أفضل جميع المخلوقات العلوية والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خلال الخير ونعوت الكمال نبينا وسيدنا ومولانا محمد ﷺ .

(قال) الإمام اليوسي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - في التنبيه الثاني آخر حاشيته الكبرى حسبما نقله عنه الشيخ الأمير (رحمه الله تعالى) في حاشيته على شرح الشيخ عبد السلام على جوهرة والده : فينبغي لك أن تستحضر في معنى الأفضلية بين الأنبياء ما ذكره الولي الصالح أبو عبد الله محمد بن عباد في رسالته الكبرى حيث قال : إنها بحكم الله تعالى لا من أجل علة موجبة لذلك وجدت في الفاضل وفقدت في المفضول ، وللسيد أن يفضل بعض عبيده على بعض وإن كان كل منهم كاملاً في نفسه من غير أن يحمله على ذلك شيء ، وذلك لما يجب له بحق سيادته والله تعالى منزه عن الأغراض وغير هذا تصف لا يسلم من الوقوع في سوء الأدب ، وما زلت أستثقل قولهم إنَّ فلاناً من الأنبياء حاله كذا وحال نبينا ﷺ كذا ، وشتان ما بين الحالين لما يوهم من النقص والانحطاط ا.هـ باختصار ، ولا يخفاك أن النقص النسبي لابد منه ، وأن غلبة الحال في مثل هذا المقال مغتفرة ، (نعم) أحكام الله لا تعلل مع أن المزايا من فروع الفضل فتعليله بها كالمصادرة ا.هـ كلام الشيخ الأمير رحمه الله .

وأفضليته ﷺ على جميع المخلوقات مما أجمع عليه المسلمون إلا ما ذكر

الزمخشري بينه وبين جبريل مما لا يعتد به ولا ينبغى أن يذكر إلا إذا قصد بذكره رده وتزييفه وتفضيله ﷺ مستثنى من الخلاف في التفضيل بين الملك والبشر لقوله عليه السلام : « **أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر** » ولأن أمته أفضل الأمم لقوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] أي عدولاً وخيارًا ، ولا شك أن خيرية الأمم إنما هي بحسب كمالها في الدين ، وذلك تابع لكمال نبيها الذي تبعته فتفضيلها تفضيل له .

وأما قوله عليه السلام : « **لا تخيروني على موسى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء** » . . . ونحوه ، فمعناه لا تخيروني تخيير مفاضلة في ذات النبوة لسوء أدب ، ولا يحتاج إلى أنه قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل لأنه مجرد احتمال ، ويحتمل أنه قاله تأدبًا وتواضعًا ، فالواجب على كل مكلف اعتقادًا أنه ﷺ أفضل الجميع ، فيعصى منكره ، ويبتدع ويؤدب ، نسأل الله السلامة والعافية لنا وللمسلمين أجمعين آمين .

ثم يليه ﷺ في الفضل الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ولذلك أدلة منها نداؤه ﷺ بـ(يا أيها النبى) (يا أيها الرسول) ، وهم (عليهم الصلاة والسلام) ينادون بأسمائهم (يا زكريا) (يا إبراهيم) (يا موسى) (يا داود) إلى غير ذلك فمرتبتهم فيه بعد مرتبته وإن تفاوتوا فيها بالنسبة للقرب منه (عليه الصلاة والسلام) والمراد بالقرب القرب المعنوي ، كما قاله المحقق الأمير قال ويشير للتفاوت قول البوصيرى يعنى في البردة :

وواقفـون لديـه عنـد حدهـم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

فالثاني أعظم ا .هـ فبقية أولى العزم من الرسل أفضل من بقية الرسل ، وأولو

العزم خمسة : سيدنا محمد ﷺ ، وسيدنا إبراهيم ﷺ ، وسيدنا نوح ﷺ ، وسيدنا عيسى ﷺ ، وليس سيدنا آدم (عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام) منهم لقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه : ١١٥] وقيل : جميع الرسل أولو العزم على الخلاف في (مِن) في قوله تعالى : ﴿ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] أبيانية أم تبغيضية ، والظاهر أن الخلاف لفظي من حيث أصل العزم ، وكماله أفاده المحقق الأمير ، ولله دره ظهورًا لكن ما هي بأوّل بركاتكم يا آل أبي بكر .

فإن قلت : إذا كان ﷺ أعظم وأفضل أولى العزم من الرسل مع أنه لم يبتل بمثل نشر زكريا الطَّيْلا .

قلت : وضح ذلك العارف الشعراني في المنن بما إيضاحه أن بعثته ﷺ عامة فكان مبتلى بهم هداية جميع الخلق ، وكفى بذلك ؛ فإن الفكر المتعب للقلب يتمنى التخلص منه ولو بالموت خصوصًا وقد جبل على الرأفة بهم والرحمة ومزيد الشفقة يعز عليه ما فيه ضررهم مع تنوع مخالفتهم وكثرتها مع تأثره بمقتضى كمال الأخوة بجميع ما حصل للرسل قبله فبسماع ابتلائهم يشاركهم فيه ، وضف لذلك ما كانوا يرمونه ، وكسر رباعيته ، وشج جبهته ، وخضب وجهه الكريم بالدم ، وإخراجه من وطنه ، ومزيد الحروب ، وهذا بعض ما علم ، وإلا فحاله لكماله أخفى كثيرًا من ابتلائه ، وإليه الإشارة « **بل لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا** » وكان لا يزيد على التبسم ، متواصل الأحزان ﷺ وشرف وكرم (اللهم) شفعه فينا بجاهه عندك آمين ، (ثم) بقية الرسل غير أولى العزم أفضل من الأنبياء غير الرسل ، والواجب اعتقاد أفضلية الأفضل على طبق ما ورد الحكم به تفصيلاً في التفصيلي وإجمالاً في الإجمالي ، ويمتنع الهجوم على التعيين فيما لم يرد

فيه توقيف ، ويليهم أي يتبع الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) في الفضلية الملائكة الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام في الجملة ، فالملائكة ولو غير رسل أفضل من غير الأنبياء من البشر ، ولو كان وليًا كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وإنما قلنا في الجملة لأن الذي يلي الأنبياء من الملائكة على التفصيل إنما هو رؤساؤهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، هذا ما قال به جمهور أصحابنا الأشاعرة تمسكًا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ [البقرة : ٣٤] أمرهم بالسجود تعظيمًا له فلو لم يكن آدم أفضل منهم لما أمروا بالسجود له لأن الحكيم لا يأمر الأفضل بخدمة المفضول وذهب القاضي وأبو عبد الله الحليمي في آخرين كالمعتزلة إلى أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، قال القاضي تاج الدين بن السبكي : ليس في تفضيل البشر على الملك مما يجب اعتقاده ، ويضر الجهل به ، ويعني بالبشر ما عدا سيدنا محمد ﷺ كما هو الإجماع .

ثم قال : التاج المذكور : ولو لقى الله ساذجًا من المسألة بالكلية لم يكن عليه إثم ، فما هي مما كلف الناس بمعرفته ، والسلامة في السكوت عن هذه المسألة والدخول في التفضيل بين هذين الصنفين الكريمين على الله من غير ورود دليل قاطع دخول في خطر عظيم وحكم في مكانٍ لسنا أهلاً للحكم فيه ، وقد ورد ما يمنع من الدخول في ذلك كقوله عليه السلام : « **لا تفضلوني على يونس بن متى** » إذ المراد به لا تدخلوا في أمر لا يعنيكم وإلا فنحن قاطعون بأنه أفضل من يونس عليه السلام والذى ينشرح له الصدر ويبرد ويثلج له الخاطر إطلاق القول بأن نبينا محمدًا ﷺ خير الخلق أجمعين من ملكٍ وبشر ، وخير الناس بعد الأنبياء والملائكة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ا.هـ كلام التاج .

قال المحقق الأمير (رحمه الله تعالى) قوله ﷺ : « **لا تفضلوني على يونس ابن متى** » فيه إشارة لنفي الجهة فإن يونس نزل به الحوت إلى قاع البحر ، ومحمد ﷺ ارتقى ، وكذلك أقرب ما يكن العبد من ربه وهو ساجد ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق : ١٩] إشارة لنفي جهة العلوا .هـ كلام الشيخ الأمير .

ويحكى أن ابن سيد الناس لما ضاقت عليه معيشته بالشام توجه إلى العراق وقد بعث إليه الخليفة العباس فلما قدم بغداد رغب فيه أهلها وأقبلوا عليه بالتعظيم والإجلال والهدايا ، فبعث إليه الخليفة يومًا وقد جلس مع خواصه في دسكرته ، فلما اطمأن به المجلس قال له : إن حديثًا قد ورد عن النبي ﷺ وقد تحيرت في كشف معناه ولم أجد من يبين لى ذلك فقال له : وما هو ؟ قال : هو قوله (عَلَيهِ الصَّلاة وَالسَّلام) : « **لا تفضلوني على يونس بن متى** » وقد انعقد الإجماع وصرح الكتاب والسنة بأنه أفضل العالمين على الإطلاق ، فما وجه النهي عن تفضيله على يونس بن متى ؟ فقال له : أيها الخليفة ، إن النبي لم يكنّ على الفضل ولا عن التفضيل وإنما هو لنفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، فقال له الخليفة : كيف يكون ذلك ؟ ونفي الجهة والمكان أجنبي من هذا الحديث ، فقال له : لا أجيبك عنه حتى يجتمع علماء البلد فتسألهم عن معنى الحديث فإن أجابوك بمثل ما أجبيتك به فقد أصابوا وإلا فقد أخطؤوا ، وقد أجلتهم ثلاثًا ينظرون ويتأملون في معنى الحديث ، فأحضر الخليفة علماء البلد – أي بغداد – فقال لهم : إني سألت ابن سيد الناس عن معنى قوله ﷺ : « **لا تفضلوني على يونس ابن متى** » فزعم أن معنى الحديث نفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، وقد أجلتكم ثلاثًا حتى تمعنوا النظر فيما قال ، فإن وافقتموه على ذلك فبينوا وجهه ، وإن عجزتم عن

البيان بعثت إليه بحضرتكم حتى يفصح عن وجه ذلك فيبينه أو يعجز ، فأقبلوا إليه في اليوم الثالث ، فقالوا : إن الحديث أجنبي من نفي الجهة والمكان عن الله تعالى : فقال لهم : أكذلك قلتم بأجمعكم ؟ قالوا : نعم فأمر بإحضار ابن سيد الناس ، فلما اطمأن به المجلس ، قال له : إن هؤلاء قد اتفقوا على أن الحديث أجنبي من نفي الجهة والمكان عن الله تعالى ، فقال لهم : أكذلك قلتم بأجمعكم ؟ قالوا : نعم ، فقال : ألستم تعلمون أن النبي ﷺ أفضل العالمين على الإطلاق ؟ قالوا : بلى ، قال : أو لستم تعلمون أن الله قال لنبيه ﷺ ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] ولا يقال للرجل لا تكن كفلان إلا أن يكون أفضل منه ، قالوا : بلى فقال لهم : إنه لم يبق للحديث وجه يكشف عنه اللبس ويوضحه إلا وجه واحد ، وذلك أن الله سبحانه لما أسرى بنبيه حتى ظهر بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام وأهبط يونس عليه السلام في بطن الحوت إلى تخوم الأرض لم يكن النبي ﷺ بالنسبة إلى ذلك المكان بأقرب إلى الله سبحانه من يونس بن متى قرب مكان ولم يكن يونس مع هبوطه إلى تخوم الأرض بأبعد من الله بالنسبة إلى مكانه الذي هو به من السفول ؛ لأن الله سبحانه لا يقرب منه مكان ولا يبعد منه مكان آخر لأن الأمكنة جميعها بالنسبة إليه سواء لأنه تعالى في كل مكان بعلمه فبقي الفضل والتفضيل على ما كانا عليه ، وانتفت الجهة عن الله تعالى والمكان والقرب والبعد بسببهما فلما بينها قالوا بأجمعهم : كشفت عنها القناع ، وصيرتها أبين من شمس الضحى فلله درُّك من عالم ؛ قد أمدك الله بالإمدادات الربانية والفتوحات الغيبية وجعلوا يقبلون رأسه ويديه ورجليه ، ثم خلع عليه الخليفة وجميع وزرائه وأرباب دولته وأمر له بمائة ألف دينار وبخيله الخاصة به أن يركب عليها إلى منزله فتكون

بعد ذلك له (رحمه الله تعالى ورضي الله عنه) .

وإلى محصل ما تقدم الإشارة بقول اللقاني في الجوهرة :

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فمل عن الشقاق
والأنبياء يلونه في الفضل وبعدهم ملائكة ذي الفضل

وقول الشيخ أحمد المقرى في الإضاءة :

والأنبياء أفضل فالملائكة يتلون في فضل علوا أرائكه
وقيل بالعكس وبعض فصلا في ذاك تفصيلا له قد أصلا
وانعقد الإجماع أن المصطفى أفضل خلق الله والخلف انتفى
وما نحى الكشاف في التكوير خلاف إجماع ذوى التنوير
فاحذر لغير منعه سماعه واتبع السنة والجماعة
وفضل المخصوص بالإسراء على البرايا دون ما استثناء

قال الشيخ سيدي محمد عليش في شرحه لهذا الرجز عقب هذا البيت الأخير ما نصه : وحكى الإمام الرازي وغيره بالإجماع على ذلك واستثنوه من الخلاف في تفضيل الرسل على الملائكة والعكس ، وفي التنزيل ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] اتفقوا على أن المراد به محمد ﷺ .

وفي حديث الترمذي : « وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » واستدل أيضاً لتفضيله ﷺ على جميع المخلوقات بآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وشرف الأمة بشرف متبوعها ، وأما من يليه ﷺ منهم في الفضل فقال الحافظ السيوطي في نظمه المسمى بالكوكب الساطع :

يليــه إبــراهيم ثــم موســى ونــوح والـروح الكـريم عيســى
وهم أولـو العـزم فمرسلـوا الأنـام فالأنبيـاء فالمـلائـك الكـرام

أفاده ابن كيران ا.هـ كلام الشارح المذكور ، وبانتهائه انتهى ما تيسر جمعه في هذه الرسالة في الوقت ، والله المستعان سبحانه .

(اللهم) اجعلها خالصة لوجهك الكريم

آمين بجاه سيدنا ونبينا ومولانا محمد ذي القدر العظيم
عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، وعلى آله وأصحابه ذوي القدر الرفيع
عند الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله
سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين

* * *

مُحتويات الكِتاب

* * *